أصوات
أدبية

المسافر الأبدى

قصص وحكايات



اللوحة للفنان الكبير مصطفى عبد المعطى

علاء الديب

المسافر الأبدي

قصص وحكايات

علاء الديب

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- المسافر الأبدى - 266 - قصص - علاء الديب
- الطبعة الأولى - أول أغسطس 1999

المراسلات:
باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

نهر تحت الصخر

كنت أنا وصديقتي يوماً في حجرتنا المظلمة. وكان كتفها عارياً ولون فستانها أسود. قلت لها :

- كنت أصلي .

- أنت تصلي ؟.

- أجل قبل أن تأتي أنت. صليت. وبكيت. وعرفت أن النور سوف يطلع علينا من الشرق. فتحت الشباك وإذا الدنيا في الخارج ظلام. كان تحت شباكي كلب مقتول، وأطل جاري من الشباك المقابل، وقال : «اغلق الشباك واستمر في الصلاة، وإياك أن تفتحه».

ثم سمعت عويلاً، وصراخاً، وصوت أشجار تتحطم، ورائحة بخور. فصليت مرة أخرى حتى وقعت مغشياً علي.

- يا حبيبي. أكل هذا حدث قبل أن آتي إليك؟.

- أجل. بدقائق. دقائق فقط.

فبكت مرة أخرى وهى تحتضننى .

كنت أنا وصديقتى نسير يوماً فى الحديقة. وسقطت علينا أوراق شجر كثيرة صفراء. سقطت على شعرها وفوق كتفها، وداست بأقدامها ورقة كبيرة. ثم ابتسمت وكأنها شمس.

قالت :

– أريدك أن تعرف السعادة. تعال معى وراء هذه الشجرة. وخلف الشجرة كان هناك بئر كبيرة. وفيه سقطت صديقتى. لم أكن أراها لكن صوتها كان يمزق قلبى:

– اعرف السعادة. اذهب واعرف السعادة.

ومن يومها وأنا أسمع من كل الآبار نفس هذا الصوت.

استأجرت غرفة صغيرة فوق السطح فى إحدى العمارات القديمة. ولم يعد يزورنى أحد. فى الصباح أذهب إلى وظيفتى وقبل أن أنزل أضع حزمة صغيرة من البرسيم الأخضر للأرنب الأبيض الصغير الذى أربيه.

أرنب أبيض، عيونه حمراء.

صديقى الوحيد.

كان ينام فى صندوقه السلك الصغير، عيونه متجهة إلى وأنا راقد فى السرير أراقبه. فى العصر عندما تبدأ الشمس تدخل من نافذة حجرتى. أراقبه حتى أنام، تظل عيونه الحمراء آخر شئ أراه حتى فى أحلامى.

فى أوقات الفراغ كنت أمسكه من أذنيه الطويلتين. أظل أحدق فى عيونه حتى ينام، بعد أن ينام ألمسه فيرتعش من جديد.

صار الأرنب حياتى.

فى يوم الجمعة الماضى تناولت إفطاراً كبيراً، من الفول والزبد والبيض المقلى على المائدة الخشبية الصغيرة. كان الأرنب ينظر إلى ويلوك شيئاً فى فمه.

شمس الصباح تسقط عليه. شعره الأبيض شفاف وعيونه الحمراء تلمع. أحسست براحة غريبة.

أصبح لى بيت.

بعد أن انتهيت من الطعام بخنت سيجارة فى الشمس. أخرجت الأرنب من صندوقه السلك. وضعته فى حجرى، راح يلعب برأسه، وعيونه الحمراء تضحك.

هبت الريح فجأة، وانفتح باب الحجرة، ليقفز الأرنب من حجرى هارباً.

اندلعت من فمى صرخة.

الريح عاصفة. والشمس تحت السحاب. وأرنبى يقفز هابطاً السلم. سقطت عند رأس السلم. بقيت كذلك للحظات. هبط المطر. ضاع الأرنب فى زحمة الشارع.

لفظتنى حجرتى الصغيرة. الباب لا يزال تعبث به الريح. والشمس تحجبها أكف السحب. ظلام خال مهجور.

ليلة بعد ليلة، حمل ثقيل، الشط والشارع، وأعمدة النور. قشور ترمس ملقاة. أوراق تدفعها الريح فى شارع أسمر طويل.

أصوات الناس بعيدة، تسقط عندما تلمس القناع الذى أرتديه.

تحت الصخر نهر يجرى. والصخر قاس يدمى القلب. وهناك أمامى تحت السحاب فى الليل عيون بعيدة جميلة تتكلم بألف لسان.

التراب يغطي وجهك

عندمـا أخذوا منى الدور وقرروا أنى لا أصلح غادرت المسرح، انطلقت فى الشـارع. خطواتي سريعة. العطش يسد حلقى، ويداى باردتان.

خلفى كان نور المسرح قد اختفى.

قال لى المخرج:

– وجهك يغطيه التراب. امسحه. ادعك وجهك.

وابتسم ثلاثة من الزملاء. وعاد التراب يغطى وجوههم. وقهقهت زميلة.. وعاد التراب يغطى وجهها. ووجوهكم جميعاً. كان الشىء الذى أخافه يقترب. كان يتكون وينمو فى فراغ القاعة ويدنو نحوى فى خطوات بلا وقع.

وساد صمت، وبعده طردت.

– كـفى، أشكرك، أنت لن تسـتطيع. أشكرك. كـفى التراب يغطى وجهك. أشكرك.

نزلت من على المسرح. وصـعـد بعدى واحد. وداعب

المخرج شعره.

ماذا فعلت حتي أهان بهذه الطريقة؟.

إننى خائف أرتجف. أخذوا منى الدور. وقرروا أنى لا أصلح.

الشارع بارد.

ما هو المطلوب منى الآن. وماذا يجب أن أفعل.

لقد حدث الشيء وتحقق. أصبح يسير معى ملصقاً خده بخدى، وخطواته بين خطواتى. أربع أقدام وجسد واحد.

المقهى الذى جلست فيه نظيف ومضيئ.. وحدى والليل ينتصف وصاحب المقهى فى يده مقص يقلم به أظافره فى ركن بعيد.

الكراسى مرصوصة حول الموائد.. بقع من الألوان تلمع تحت الضوء. الجرسون عجوز، شعره أبيض.. وخطواته لا تلمس الأرض.

- الوقت متأخر، والدنيا برد.

ولم أرد.

– أين بقية الأصدقاء. ألن يأتى أحد الليلة؟.

هززت رأسى وقلت:

– لا.. لن يأتى أحد.

– هل حدث شىء.

ومن زجاج المقهى كانت هناك شجرة من أشجار السرو بعيدة وعالية.. تهتز قممها وتخفى جزءاً من وجه القمر.

لم يحدث شىء. فقط ستظل قمة شجرة السرو دائماً لتخفى جزءاً من وجه القمر.

شجرة السرو، ووجه القمر.

التراب ووجه القمر.

الجرسون العجوز يتكئ على الرخام البارد.

نقطة ماء على المائدة. أحاول أن أرسم بها شيئاً ولكنها تجف.. ونور بعيد بجانب شجرة السرو ينطفئ.

– الساعة الواحدة. سوف نغلق.

وصاحب المقهى يلقى المقص من يده ويلوح لى مودعا.

وخلفى ينطفىء نور المقهى، ويغلق الباب.

أمام الكباريه كانت التكسيات، حيوانات كبيرة تنتظر الانطلاق.

دخلت من الباب الضيق!! نور وموسيقى عالية.

كانت هي تجلس على المائدة الأخيرة، تسوى شعرها الطويل والنور على وجهها يكتب أشياء مختلفة. ولكنه الوجه، نفس الوجه لا يتغير. جلست ولم أقل شيئاً.

أمسكت هي بالكأس وأخذت تحدق فيه والنور يسطع من خلاله. قالت:

– لماذا أتيت؟.

– أنا أريدك.

– أنت.. حتى أنت أيضاً..

– أنا لا أكذب.

– الناس جميعاً لا تكذب.

وقامت من جوارى. انطفأ النور وأضيء وتعرت امرأة لترقص.

عادت هي بعد قليل وفي يدها حقيبة وعلى كتفها بالطو:

- هيا بنا.

بعد أن صعدنا سلالم بيتى المظلمة كانت تلهث.

جلسنا فى نور خـافت على كنبـة لينة ونظرت إلى

وقالت:

- اذهب، اغسل وجهك.. إنك متعب.

انتهت الليلة. انتهت..

كانت هى متعبة. وأنا أيضاً متعب. ولم نشعر بشئ.

ليس عندنا ما يقال

تركت يدى فى يدها، ورحت أحدق فى مجرى التيار.
أحسست بها تتململ فى مقعدها لكننى رحت أحرك السيجارة بين أصابعى.

طال بنا الصمت، وانطبعت خيوط المفرش البيضاء فى عيونى.

- أظافرك اليوم ليست نظيفة؟.

لم أقل شيئاً لكننى ابتسمت فابتسمت. عاد إلينا الصمت.

- ألن نقوم؟.

غادرنا الكازينو وتركنا على المائدة فنجان قهوة نصف ممتلئ، وشفاطة فى كوب ليمون محنية ومكسورة وعلى المفرش بقايا رماد.

كانت الساعة حوالى الثالثة. الشارع خالى وعلى

جانبيه تراب. كم أود أن أتركك الآن يا عزيزتى. دعينى أذهب. ليس عندنا ما يقال.

فى جيبى منديل متسخ ومطوى فى عناية، ملمسه غريب. أحدق فى حذائى وأسمع وقع خطواتك إلى جوارى.

فى الليل سوف أذهب إلى الصحراء. سيكون القمر فوق الرمال. ستلمع أشجار الصبار الخضراء. لن يكون لخطواتى صوت.

انحنت صديقتى لتلتقط وردة ذابلة. رفعتها إليها فى حنان أجوف. خطأ صغير يكفى لأن ينكشف الإنسان ويصبح عاريا. إنها ليست صديقتى. إنها بعيدة. نظراتها لزجة ومائعة.

فى الليل سوف أذهب إلى الصحراء. سوف أبكى حبيبتى الضائعة التى أبحث عنها دائماً ولن أجدها. حبيبتى أريد أن أذوب معك رقة. أن أبكى كل الدموع.الهول لى إذا استسلمت. لا للحلم. لا للحقيقة. فقط أريد أن أذهب إلى الصحراء وأبكى هناك حبيبتى

الضائعة.

الشارع والشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة والأوراق الجافة وصديقتي. والوردة الذابلة في يدها. والحنان الزائف. كل شئ يذوب عندكم.

كانت الساعة حوالى الثالثة. والشارع خال. شارع هادئ وجميل، للعشاق. ونحن نحب بعضنا. ألسنا نحب بعضنا ؟.

الحنان الزائف يذوب ككل شئ عندنا. لا.. لن أرد .. فقط لن أرد. ليتنى أستطيع أن أسكت. اليوم لن أرد. لن أقول أننا نحب بعضنا. لا.. ليس الآن. لا أستطيع. حبيبتى الضائعة سوف أراها. سوف أمسك الخيوط التى تشدنى إليها فى قلب الصحراء الليلة، عندما تحيط بالقمر هالة من الضوء الخافت. ويهمس القمر بالنور. هناك سوف أجد حبيبتى الضائعة. حبيبتى التى لن أجدها أبدا.. هناك..

طال بنا الصمت مرة أخرى. وتولد فى نفس صديقتى التى تسير إلى جوارى شئ ما طفح على وجهها.

إنه الملل.

تضيق بصمتي. تريدني أن أحدثها. أن أشد على يدها. تريدني أن أكون دافئا إلى جوارها. أنا يا صديقتي أكره الملل. أريد أن أكره الملل. بدأت أنا أخاف. لا تنفجري يا صديقتي. لا تقولي أشياء قاسية. دعيني أحلم. كوني رقيقة كما أنت. أنا أعرف أنني أحلم. كوني هادئة. يكفي أنك إلى جواري. لن آخذ منك شيئا . إنك فقط إلى جواري. أحفظ يدك في يدي.

هذه يدك، وهأنذا أقبلها.

الهول لي ولكم.

ولامست أصابعها رقبتي. وانداح صوتها يدعوني: «ياحبيبي».

– ما يعجبني فيك أنك لا تظلم أحداً. إنك دائماً تعطي أكثر مما تأخذ. كذاك أنت معي دائماً تعطي أكثر مما تأخذ. كذلك أنت معي دائماً رقيق وطيب. ستكون لي زوجاً رائعاً يا حبيبي.

أنا رقيق ورائع.

هناك شئ يجب أن يكسر. أن يتحطم. شئ يجب أن يحدث. هناك في وسط الصحراء سوف أبكي وأخبط أقدامي في الأرض قبل أن تأتي الجميلة حبيبتي الضائعة.

تأتي وتلفني في ثوبها الأبيض. تسير إلى الميدان.

أنسى روحي في ضوء القمر. اتركيني. اتركيني ودعيني أذهب فليس عندنا ما يقال.

– لن أستطيع أن أركب الأتوبيس من هنا. نسير إلى الميدان. أمي تقلق إذا تأخرت.

– لن تتأخري. ستركبين الأتوبيس من الميدان.

وقع خطواتها لا يزال جواري، والناس تملأ الشارع الذي نسير إليه. خطواتها لا تتردد. تدق في رأسي،مقدمة للنهاية التي لن تأتي. الشارع المزدحم يقترب. ونحن نسير إليه، على وجهها رضا وحماس. أنا مستلق على ظهري والنور يسطع في عيني. أريد أن أغلق عيني. لكنني لا أستطيع. النور يسطع في عيني. الشارع المزدحم يقترب. عربات وناس. وعربات حمراء كبيرة

تتلوى.

سأشترى علبة سجاير جديدة عندما تذهب.

- غداً نلتقى فى الثالثة.

- أجل غداً فى الثالثة.

الرجل الذى خبطنى فى كتفى لا يقصد شيئاً. أنا لا أقصد شيئاً. كل شئ مؤقت سينتهى هناك فى الصحراء. عندما تأتى حبيبتى الضائعة. هنا لا وزن. لا وزن. حتى للملل.

على وجهها حماس وأنا فى ذراعها أسير. اختفت فى الزحام. كان على وجهى ووجهها تعبير جاد ومتجهم.

هاني وهند

غربت الشمس، وبدأت الشوارع التى تحيط بالبيت الكبير، ذى الأدوار الثلاثة، تهدأ ويهجرها المارة، وراحت اللمبات الكهربائية تسقط نورها البارد باستمرار وانتظام فوق أسفلت الشوارع. لم يعد هناك مقياس للزمن.. فلا أحد يستطيع أن يشهد بمرور ساعة أو سنة. وساد المنطقة كلها صمت تام..

الشوارع مستقيمة، ونظيفة، وتحيط بالحديقة الواقعة فى منتصف الميدان، تطل عليها مجموعة البيوت المجاورة، كلها بيوت ذات دورين أو ثلاثة، نوافذها طويلة، وجدرانها ضخمة، وطلاؤها قديم.

عندما خرج هو من غرفته رأى أن السطوح تمتد أمامه فى سعة تحت نور شاحب. إنه الآن يستطيع أن يسير عدة خطوات غامضة يخطوها فى السطوح حتى

يصل إلى هناك، حيث الحائط المائل، والأعمدة الخشبية الطويلة. فيتكئ على السور ويغرز عينيه في الظلام.

كانت قمم الأشجار التي في الحديقة تتعاقد لتكون كتلة كبيرة من السواد. أوراقها متشابكة غزيرة، كلها خضراء، كأنها بحر يشد عينيه وكأنه لن يجد الراحة إلا هناك. كانت ثابتة لا تتحرك، والبرد قد انعقد فوقها في منتصف السماء. فليس هناك ريح والجو خال من الضباب.

أسرع يهبط درجات السلم المظلمة. كان بير السلم مليئاً بدخان يتصاعد من القاع. ولم يكن يتبين في عجلة النزول سوى الأبواب الزجاجية تلمع وكأنها أفواه لحيوانات غريبة. إلا أن خطواته كانت تعرف طريقها. وصل إلى الباب فتطلع حوله، وهو يعبر الشارع، وسار بخطوات سريعة نحو «الجنينة»..

النجيل الأخضر بلله الندى فاكسبه لمعانا وبريقا، وسيقان الشجر هي الأخرى بيضاء ومستقيمة. والجنينة تمتد ساكنة وغارقة في الظلام، فدخل إليها.

إنه لا يستطيع أن يسمى هذا الذى هو فيه سوى النعيم. يجرى، ويهبط التلال، وكل شيء حوله أخضر وسهل. ليس يحمل ذنبا أو شعورا ثقيلا. كم هو خفيف، لم يكن سوى طفل واسمه هنا: هانى..

كانت فروع الأشجار تتعانق وكرات صفراء صغيرة من ثمر النارنج تضئ ظلمة الأشجار، وكذلك زهور بيضاء صغيرة تناثرت تحت قدميه، تكلمه، وتميل سيقانها، فيجرى وتصدح خطواته بالفرح.

رآه ولمس ماءه. الجدول البارد. وأحس طعم الماء النقى فى فمه. فأشرق وجهه براحة وسعادة تكاد تنطق، كان وجهه جميلا مستديرا، ينعكس كالقمر على سطح الماء، ورقد إلى جوار الجدول يلعب بأصابعه ويسمع تساقط القطرات الفضية على السطح الساكن كان لا يعرف الحدود. فكل ما يحيط به قد تداخل واستحال إلى نغم يستجمع أطرافه ليصل إلى قمته..

أطلت عليه من الشاطئ الآخر. رأى وجهها وثوبها الأبيض. وعندما رفع عينيه رأى حذاءها الفضى الصغير.

كانت تقف خفيفة على الأرض الخضراء بلا ثقل وقد انعقدت حولها هالة. أحس بابتسامتها فى قلبه كأنها منقار يمامة. فكفت أصابعه عن العبث بالماء. تلاقت عيونهما - عبر الجدول - فعرف اسمها وناداها به.. هند..

***

كان يقول لها:

- لست أعرف ما أنا فيه. لم أذق مثل هذا من قبل.. ولم أعرف أنه موجود. كم أنت جميلة فى كل شىء. كأنك نفسى. أنت كل ما أحببت. لماذا تبدو أصابعك هكذا غريبة. إننى أشعر بها فى قلبى.. فى روحى. تلمسنى حيث لم يلمسنى أحد. كأنك تعرفيننى. كأنك جزء منى. هند كيف هذا..

تبتسم له، وتدارى وجهها فى كتفه لتقبل رقبته. ويملأ صوتها صدره وهى تتمتم بالحروف. ويحس بجوارها بأنه طفل تملأ جسده الصحة والسعادة. كانت تستلقى على الزرع الأخضر وترفع عينيها للسماء وتسأله.

- هانى، هل تحبنى!

فيخفى رأسه فى صدرها ويقول:

- أنت الأرض.. والسماء.. وأعرف أنك تشعرين..

- بماذا؟..

- بأننى أحس كل لحظة، أنى أمشى فوق الماء.. وأننى معك أحلم بك، وأستنشق فى كل لحظة هواء بكرا.. إن الحياة إلى جوارك..

- أنت تريد شيئاً..

- أريد.. أريد أن أسير معك.. أن أدور.. وأن ألف بك كل مكان..

وكانا يسيران إلى مالا نهاية، والأرض لا تنتهى، ويغنى لها.

- سوف أذهب معك إلى هناك ولكن هل تريد..

كان مروعا بالحب فى صوتها. يسمعها، ويتنفس رائحتها، فلم يجب، وأمسكته من يده إلى أن وصلا إلى الكشك المغطى بنبات أخضر رقيق.. زهوره الحمراء الصغيرة كأنها نجيمات متألقة، لم يكن فى أرض الكشك

سوى فراء أبيض كبير. جلسا عليه وغمرت وجهه بالقبلات لم تكن تتوقف لكي تكلمه ولكن كلماتها كانت مع قبلاتها بحرا رائعاً يسبح فيه..

تراها. مليئة بالبريق. إنها في المنتصف بين فمي وفمكَ. هل

– أنت لي، والحب بيننا جوهرة.

عندما التقى فمه بفمها لمس الجوهرة، أحس بها تتردد في حنان بين أسنانها البيضاء. وأسنانه تسبح بين لسانها ولسانه.

كانت جوهرة بيضاء مستديرة.. أشد نقاء من قلبه، أحبها واشتاق لها وكان يعطيها لها وتعطيها له ألف مرة.. وهي هناك دائما تولد مع كل قبلة.

★★★

عندما أراد هاني ذات مرة أن يترك هند لكي يتجول وحده في الجنينة شأن الرجال، وقفت أمامه تتطلع له في حب، كانت عيناها فوق جسده تودعانه قال لها:

– لن أغيب، إنها جولة صغيرة، لست أدري بالضبط

ماذا سأفعل، ولكنني محتاج لجولة صغيرة..

- شيء.. كان علي دائماً أن أقوله لك دائما أنسى.. سأقول لك الآن قبل أن أودعك، ليس من المفروض أبدا أن تقول إنك أحببتني.. ليس من المفروض أن تبوح. ما سيحدث لو تكلمت عنا فظيع. هل تعرف.. سنفقد الجوهرة. لن نجدها. ستسقط من فمك وسوف أذهب أنا.. أيضاً.

ومسحت بيدها على شعره وكأنها تقول «أنا أعرف أنك لن تبوح» واكتسى وجهه بكبرياء، وودعها وانصرف. ظلت هي واقفة على مدخل الكشك تراقبه. يسير بقامته القصيرة في ممرات الجنينة. كان وقع خطواته الوحيدة غريبا. ولكنه كان يسير وهو يفكر أنه يريد أن يذهب بعيدا، لكي يعود إليها. يقول لنفسه إنه مهما سار فسوف يصل إليها.. إنها دائما هناك.

لقد تكلمت، أنت تكلمت..

طأطأ الرأس في خجل، فقد عرف أنها عرفت. ولكنها دائماً تستطيع أن تغفر، هكذا كان نفكر قبل أن يصل

إليها ويرى وجهها الشاحب. لقد استندت إلى صدره قائمة وكان يبدو عليها الإرهاق. فاجأته فلم يستطع حتى أن يفكر.. أخذ يحاول أن يقول:

- قالوا لي.. أنت لو تكلمت.

- لا تعتذر.. أنا لا أملك الغفران. ولكن قبلني. قبلني قبل أن يضيع الوقت. وعندما التقت شفته بشفتيها الباردتين.. لم يكن هناك وجود للجوهرة. وأحس بروحه تنخلع.

***

كان شكله مضحكا وغريبا وهو يتحرك هكذا في وسط أشجار الجنينة. وحوله كل شوارع الميدان وقد ملأها صراخ الناس والعربات والباعة. في مثل هذا الوقت من الصباح يكون كل الناس الذين يتحركون في الشوارع نشطين وذاهبين إلى أعمالهم.. وليس أحد مثله تائه يتخبط في أشجار الجنينة، لذلك فقد أسرع عائداً إلى غرفته يملؤه الارتباك.

ثلاثة خطابات
إلى حبيبة مجهولة

صديقتى:

أزرع هنا فى حديقتى كل ما أستطيع، كل الأشجار تموت. لا شئ يريد أن ينمو. منذ أن افترقنا، وأنا أفكر فى اللقاء، لصوتك - أو ربما لوجهك - رائحة غريبة وأنت تهمسين:

- غدا نلتقى فى المساء.

أنت تعرفين أننى أحب لقاءك. أنت تعرفين أننى لا أكره شيئا سوى أن تمر على ليلة دون أن ألقاك.

اللقاء يا عزيزتى صعب. لن أستطيع أن أخرج لك الليلة.

ستنتظرين فى نفس المكان الذى افترقنا فيه، تسمعين صوت الضفادع. تبردين. تراقبين النجوم. لكننى، لن آتى.

إنها الآن ساعة الفجر. أنت لا تزالين فى مكانك. هل

تعبت أقدامك؟ هل ترتدين الآن ثوبك الأبيض؟.

ليس من حقنا أن نبكى مهما بلغت بنا الوحدة أو قسوة الأشياء. كل الأشياء يجب أن تظل فى داخلنا لا يتسرب شئ إلى الخارج. كل شئ يضيع عندما يصبح فى الخارج. لذلك رغم كل شئ فلعله من الأفضل أننى هنا ولا أستطيع الخروج إليك .

الرد :

صديقى :

انتظرتك. طبعا لم تأت، وصلنى خطابك. لم لا تأتى. أريد أن أراك.

صديقتى .

إذا كنا ضعافا هكذا فماذا يأكل الأسد؟ من الذى يحيى جذوة الحياة؟ من يرقب الشجر؟ علينا أن نعيش كثيرا لكى نموت غدا ! كم أريد أن أخرج من هذه القلعة. من وضعنى هنا!

رأيتك أمس فى المنام وكنت جميلة. حاولت أن أمسك بك ولكنك كنت سحابة من دخان.

لماذا لا أجد الأرض أبداً تحت قدمي. لماذا تسقط قدمي في حفرة كلما أردت نقلها.

لماذا يسقط قلبي ونصف جسدي في الفراغ كلما أردت أن أتحرك .

من هنا نبدأ. يجب أولا أن نعرف ماذا يعني الفراغ؟ لكن كل شئ ينغلق وتستحيل الرؤية. تصبح الدنيا صندوق خشب قديم تحيطه الأعشاب الجافة والخضراء. يسكن في الصندوق معي فأر صغير يحاول أن يأكل أطرافي.

هل تريدين أن أروي لك حكايتي مرة أخرى. لقد رويتها لك مئات المرات. أنا مثلهم جميعا. فقدت في البحر شيئا. بعد ذلك فرض على العقاب. عقاب لا أدري متى بدأ ولا أين ينتهي. أنا هنا لكي أكفر عن الشئ الذي فقدته وليس لي إلا الحق في أن أكتب لك. أعرف أنني لن ألتقي بك.

أعرف أن جسدي لن يذوب يوما في جسدك.

ولكنني أحب وأكتب.

قالوا لي قبل أن يحبسوني في القلعة.

– ازرع .

أنا أزرع. ولا شئ يريد أن ينمو. الأرض تأكل البذور. يعرفون هذا ويضحكون مني.أقول لك هذا وأشكو. قولي لهم : إنه يريد أن يزرع. أريد أن أرى نباتي ينمو. أنت حبيبتي فقولي لهم هذا .

شئ آخر أريدك أن تعرفيه أنت لي: هل تنمو بذور الآخرين؟.

الرد :

صديقي :

كم اشتقت لك. عرفت كل شئ.. لابد أن نلتقي.. حبي.

صديقتي :

الليلة أكتب لك بعد يوم غريب. كنت طول النهار أنتظر شيئا يحدث، من الصباح والشمس نصف قرص أحمر مخنوق، قبل الظهيرة امتلأت الحديقة وشرفات القلعة بطيور سوداء صغيرة. تصرخ وأنا أشير لها كي تسكت لكنها كانت تستمر في العويل والصراخ مقتربة من

وجهى، الذى كان العرق ينزف منه. وفجأة سكتت الطيور وحطت على الأرض وأخذت عيونها البيضاء تتحرك فى كل اتجاه وأجسامها الصغيرة ثابتة وكأنها تماثيل صغيرة.

الأرض والجدران كلها مزروعة بهذه الطيور. الصمت معلق فوق المكان كله. فتح باب الحديقة الحديدى الكبير ودخل منه رجل لم أستطع أن أتبين منه سوى حذائه الأبيض، أما وجهه وجسده كله فكان مغطى بعباءة سوداء.

وقف الرجل أمامى. كان يدوس على الطيور السوداء فلا تصرخ، كانت تختفي في الأرض. جلس على دكة من الحجر. وضع ساقا على ساق. أخذ يحرك حذاءه الأبيض فى هدوء. كأننى كنت أتوقع كل هذا. كنت صامتا ولم أنفعل. استندت على عصا فى يدى. واقتربت من الدكة التى يجلس عليها الرجل، وأخذت أصفر بلحن قديم.

أخيرا وبعد صمت طويل كنت أشعر خلاله أن عيون الرجل التى لا أراها تحدق فى، بدأ يتكلم.صوته يشبه

صوت الطيور التى كانت منذ لحظات تعوى وتصرخ.

قال:

- عرفنا أن لك عشيقة. كلنا عرفنا ذلك. عرفنا أنك ترسل لها خطابات. ضحك فطارت الطيور من على الأرض ثم سقطت مرة أخرى جامدة لا تتحرك. عاد صوته الذى يشبه النقيق يدوى فى المكان:

- هذا من حقك. قلنا لك هذا من حقك. ولكننا لاحظنا أخيرا أن أسئلتك بدأت تصبح سخيفة. مالك أنت وبذور الآخرين؟ لماذا تسأل عنها؟. أجب لماذا تسأل عن بذور الآخرين؟.

قام واقفا، وأخذ ينفض بيديه التراب الذى كسا مؤخرته من المقعد الحجرى الذى كان يجلس عليه .

وبدا أن الصمت سوف يطول. كنت أنا قد قررت ألا أجيب. قال :

- أعرف أنك لن تجيب. فأنت لا تعرف لماذا تسأل. كنت أسمع كلامه وقد بدا أنه لو تكلم أكثر من هذا لانفجرت ضاحكا. أصبح صوته يشبه أصوات الأبواب

القديمة وهى تفتح. وبدأت أفكر هل هو رجل أم امرأة؟.

أخيرا بدأ يأخذ طريقه ناحية الباب وقبل أن يصل بخطوات استدار وقال :

- أنت تعرف أنك لن تخرج من هنا حتى تحول كل هذه الأرض إلى أشجار خضراء. أنت تعرف هذا، فأنصحك أن تلتفت إلى عملك وتبدأ فى الزراعة.

أشار بيده إلى كل الطيور لتتجه ناحية الباب فتحركت لتسبقه هناك.

عادت الحديقة يا صديقتى والقلعة كلها إلى الصمت. اتجهت أنا إلى المقعد الحجرى وجلست عليه .

أفكر فى أمرك. وفى حبى الذى أخفيه لك.

قمت وأخذت أتجول فى الأرض الجافة. كنت أحدق فى الشقوق وأنحنى لكى ألمس الأرض.

صديقتى. هذا هو ما حدث اليوم فهل تريدين بعد ذلك أن أواصل الكتابة لك. لا أدرى .

أهم شيء في العالم

كـان يجب أن تســافـر، أن ترحل إلى أرض بعـيـدة وتتركنى هنا .

تقرر كل شىء فجأة.

قررت هى، وكانت يومها حزينة، تحت شمس خريف باهت: أن ترحل وتتركنى.

يدها كـانت فوق رأسى، ورأسى على فـخـذهـا، وباقى جسدى ممدد فى الرمـال، عيناها الخضراوان العميقتان كانتا سارحتين فى اللون الأصفر الذى يختلط هناك فى الأفق البعيد بلون السماء.

لم تكن تتكلم. كأنها تسمع موسيقى بعيدة فى خيالها . كانت قد أعلنت بكل ما تستطيع أنها تحبنى. وقررت رغم ذلك أن تدعنى وحدى وتذهب. فى خفـايا عقلها تلافيف داكنة لا أستطيع أن أرى ما حدث فيها .

مشاعرها. كلماتها. جسدها، تمتد أمامي دائماً كأنها سهول خضراء شاسعة تدعوني إليها. حدث هناك في مكان ما في عقلها عملية غريبة معقدة قررت بناء عليها أن تتركني وترحل.

كم أخاف الوحدة التي أنا فيها الآن. أخافها وأكرهها لكنني أعرف أنها حياتي. دائما أعود لأتذكر. لكي أعذب نفسي، ليس هناك مفر. ستظل الذكرى إلى الأبد.

كانت رمال غريبة، ناعمة جدا، تركنا فيها آثار أقدامنا. آثار كبيرة منكوشة تقلق سكون الرمال. فرشت هي «البطانية» الملونة الصغيرة على الرمل، جلست تبتسم لي في سكون. كانت تدعوني لكي أجلس. وجهها كان ساكنا، وساقاها نقيتان، جميلتان، فأخذتها إلى صدري.

الخريف على حافة الرمال يداعب أغصانا جافة لشجر طويل أعرفه. قالت لي إنها أحست معي أنها في بيتها. أنها لم تعد غريبة. قبلت على وقع أصابعي في جسدها كل شيء. الحياة والناس صارت أشياء مقبولة - لا غرابة فيها كنمو النبات وطلوع الشمس.

أكره الوحدة. أرفض أن أبقى هكذا. الذكرى تؤلم. الصور الكثيرة تتداعى كوقع أقدام لص فى بيت ساكن. الذكرى قوية ولا يحيط بها إلا الصمت فدعها تسقط، دع الذكرى تسقط... ولتكن حياة.

المائدة الخشبية الصغيرة التى تفصلنا، مزروعة فى لحمى تؤكد المسافة التى تبعدنا، أنا.. كل ما أريده أن أنضم إليها، أن أذوب فى صدرها.

تبتسم لى، تدعونى، تبدو أنها بعيدة عالية بين السحاب. عيونها تعلن أنها تحبنى، حبى يسعدها. الطعام الذى أكلناه كان ساخنا، نظيفا وغسل لنا غلام صغير أيدينا، تركنا الماء تجففه نسمات هواء.

انتعشت على لسانها حكايات كثيرة. فى أذنى شوق كبير لسماعها، طفل تقوده كلماتها إلى أرض مسحورة تهمس بأغان ترقص لها شعيرات دمى.

تصمت فتتركنى وسط واحة من حضورها المطمئن. أحدق فى وجهها الساكن فأرى الدنيا خلف هذا الوجه طيبة وجميلة.

يحضر لنا الجرسون «صينية» القهوة. يصب فنجانين كاملين عليهما «وش ثقيل». بين الفناجين كوب من الماء البارد..

قلت :

– حاسبى تهزى القهوة.

انتبهت، وابتسمت، عندما تعرفت علىٰ جمال الفناجين وفرحى بهما.

الساعة تقارب الرابعة، شاطئ «أبو قير»، تمتد رماله الهادئة تحت شمس الخريف مسترخية. الموجات تصل إليه كسولة، ثم تعود مخلفة رطوبة غامقة وزبدا أبيض.

داعبت يدى شعرها فى صمت لنقوم، تسير إلى جوارى. بدأ صوت المدينة التى نقبل عليها يفصل بيننا، ليغرق كل منا فى نفسه أكثر. نعود فى النهاية بذكر قرار الرحيل.

كان شبح هذا القرار يفصلنا ظاهريا، ويربطنا فى الواقع بثقل وجودنا الواحد المشترك. كأننا شجرة تفرعت قرب الأرض إلى فرعين كبيرين غليظين. فى قمة كل فرع

أوراق خضراء سعيدة تهتز، وهى لا تدرى بملمس الساق الخشن.

أولاد يجرون فى الشوارع. صغار يشمرون عن سيقانهم الرفيعة، يسيرون بنفس الأقدام الصغيرة فوق الأسفلت، وفوق الرمال. أتوبيس كبير خالٍ. عربة بيضاء مسرعة، شعر امرأة شقراء، كلب أسمر يطل من عربة، وأصوات أخرى. أصوات مدينة. وقرية. وشاطئ. ورائحة سمك. إعلان عن البيرة ومفرش ملون يطير من فوق مائدة. وبلاط فوقه ذرات رمال.

كان الحديث يبدو كأنه عادة قديمة نسيناها، الصور التى نراها وسيلتنا الوحيدة للتفاهم.

قبضت على يدها الصغيرة وسألتها:

- تحبى نقعد ؟!.

تعلقت عيونها بوجهى، هزت رأسها.

الكازينو القريب، يرتفع بعدة سلالم عن الشاطئ، وقد امتلأت الترابيزات التى تعلوها شمسيات ملونة مستديرة. سارت إلى جوارى نتلوى وسط المقاعد والمناضد الخالية

حتى وصلنا إلى واحدة بعيدة قريبة من جدار صغير، وضعت على الجدار قدمي، ودفعت الكرسي إلى الخلف.

البحر يبدو كبيراً جدا. وواسعاً، في نهاية الأفق عدد كبير من القوارب الصغيرة. فردت الشراع الأبيض اللامع. تحت الجدار مباشرة تجلس امرأة سمينة، نفضت عنها الملاءة السوداء. وعرت ساقين سميكتين. يلعب حولها طفلان هزيلان. وكوبري من الخشب القديم المتآكل يمتد لعدة أمتار داخل البحر ثم ينتهي إلى لا شيء.

أحضر جرسون آخر فناجين القهوة ووضعها على الترابيزة وأخرجت هي مجلة من شنطتها ونشرتها أمام وجهها، غابت عيونها عني تجري وراء الكلمات.

رحت أنا أراقب قلعة «نيلسون» القديمة، والشمس تنسحب من فوق جدرانها.

قالت :

– الناس دي بتحرق نفسها ليه ؟

لمحت في المجلة صورة لأحد البوذيين وقد أشعل النار في نفسه. لم يكن هناك شيء واضح في الصورة.

مجموعة ظلال يطل منها معنى غريب يخترق صدرى.

تتكلم كأنها غائبة.. كلمات كأنها بقع ألوان تتلاشى في الأفق وتذوب. ويسقط علينا مرة أخرى نفس الصمت.

أغلقت المجلة ووضعتها على المائدة، لتضع بيننا مرة أخرى ثقل قرارها القديم. راحت تدق بأصابعها الترابيزة. وتتحرك فوق مقعدها.

قلت بلا مناسبة :

- أهم حاجة، إنك تعرفى تبقى سعيدة.

- أهم حاجة ..؟!

- سعيدة، زى ما احنا دلوقتى، سعيدة بالدنيا.

تلفتت حولها بسرعة لترى الرمل، والبحر، وقرص الشمس. وفنجان القهوة فى يدها وقد انسكب بعض منه فى الطبق.

- انتى مسافرة ليه ؟.

ارتعش الفنجان فى يدها، نظرت بين عينى.

أدرت وجهى كأننى ارتكبت خطأ، لا أريد أن أراها، وجهها متقلص جاف.

وجاء صوتها:

- عايزة، أطلب منك حاجة. توعدني؟.

- أيوه ..

- مش تعرف ايه هي الأول .

- لا .

النهاردة مش عايزاك تسيبني. من دلوقتي لغاية أخر دقيقة.

انحبس شئ في حلقي.

- ايه أهم حاجة في الدنيا؟.

- أهم حاجة في الدنيا!

كانت مجموعة بعيدة من الأشرعة البيضاء تتشابك أمام خلفية من اللون الشاحب، تتلاقى وتهتز أمام عينيّ لتوقعني في خدر لذيذ يسري من أول أقدامي الباردة، إلى شعر رأسي الذي تتخلله نسمات الغروب.

- أهم حاجة أنك ما تدلقيش القهوة.

****

العاصفة

قمم الأشجار هادئة، الظلام يدور حول البيت ونجمات بعيدة تسطع فى السماء.

تأتى من الشمال ريح رقيقة تحرك أوراق الأشجار فتميل لتلامس شباك غرفته المطل على الناحية الشرقية.

عيونه مفتوحة لا يرى شيئاً ويسمع تنفس زوجته المنتظم.

فى صالة بيته أثاث قديم. يسقط ظلالاً رقيقة لما يقع عليه ضوء اللمبة الصغيرة المعلقة فوق السقف.

أوراق الأشجار تداعب الشباك، أصابع رقيقة تداعب الشباك. تداعب وجهه، تناديه وتحمله إلى..

تحمله إلى.. إنه ينفصل.. يبعد. تحمله الأوراق، وصوت الأوراق، يحمله وحده.

استأذن صوت الأوراق وتحرك، نام على ظهره، فتح عينيه فى الظلام.

لم يستيقظ الليلة؟!

الأولاد نائمون. الزوجة نائمة وغدا في الصباح ينتظره العمل والأوراق.. أوراق أخرى بيضاء ميتة لا تتحرك. تزحف.

خمسون عاما مع الأوراق البيضاء في النهار، وفي الليل هنا يسمع الأوراق في الشباك..

كل اللحظات قصيرة، الليلة سوف تدوم.. ليس في هذه الليلة لحظات.. إنها ليست كغيرها .. وليس لها أبداً نهاية..

تاهت عيونه يوما وهو ينظر إلى الصحراء وتمنى أن يصل إلى شيء، أن يرى شيئاً، لكن الصحراء كانت صحراء.. وارتد بصره إلى مقدمة حذائه..

تاهت عيونه يوماً، وهو ينظر إلى البحر، وتمنى أن يصل إلى شيء. أن يرى شيئاً. ولكن الماء كان ماء، ولونه أزرق. ناداه طفله الصغير. فارتد بصره إلى الشاطئ..

صوت الأوراق يتغير، وتنفس زوجته لا يتغير.. النور الضئيل في الصالة ثابت، ثابت، وعيونه محدقة في ظلام

رقيق خال من الأشباح. لون الملاءة أبيض.

أعوام خمسون كلها لحظات قصيرة. لم يعرف فيها سوى السطح، بضع سنتيمترات تحت السطح.

لم أستيقظ الليلة؟.

الأولاد نائمون والزوجة نائمة، وغداً في الصباح ينتظره العمل والأوراق الميتة البيضاء التي تزحف.

شرب الشاي ونام ونامت زوجته تماماً كما يفعلان كل مساء، انطفأ نور البيت ونام الأولاد. للبيت نفس الرائحة التي له منذ أعوام وأعوام. ولزوجته نفس الرائحة التي لها منذ أعوام وأعوام.

لم أستيقظ الليلة؟!.. ولم يسمع كل هذا الصمت؟.. كل هذه الأسرار والأوراق التي تداعب الشباك.

علت دقات قلبه، وداعبت الأوراق الشباك مرة أخرى ثم سكتت وضاقت دائرة الصمت وتوقف كل شيء.

هنا. الآن. الليلة. وسط كل هذا الصمت والظلام. سوف يحدث الشيء.. خمسون عاماً ينتظر الشيء.. ينتظر الشيء أن يحدث. أن يتحقق. أولاد، وزوجة وبيت

ومدارس. هو ينتظر الشيء أن يحدث.. لكنه لا يحدث.. الصمت والأوراق..

ظل الأثاث القديم. الشباك والظلام والأسرار والأنفاس المنتظمة. إنه ينتظر الشيء. واللمبة الصغيرة قرب السقف.

خمسون عاماً. وشعر أبيض، وعروق في اليد.. وجبهة كبيرة، وصمت.

انتفض من السرير واقفاً، عندما رأى البيت كله مضاء بنور البرق، كل الشبابيك كانت تنتفض.

عندما وصل إلى باب الغرفة كانت زوجته لاتزال تتقلب في السرير، وتفتح عيونها:

– ماذا حدث؟

مدت يدها نحوه، ولكنها لم تجده.

– ماذا حدث.. أين أنت؟

اندفع في صدرها فزع. الأبواب تصطك والشبابيك ترتعش، وصوت الأشجار في الخارج يئن. زوجها ذهب، ليس إلى جوارها. وصرخت:

– عاصفة. أين أنت؟

كانت تتحسس رأسها وملابسها عندما لمحت جلبابه الأبيض يتحرك فى الصالة.

فى وسط الصالة وقف ينظر إلى السقف، يراقب اللمبة الصغيرة تهتز وتتحرك مسحوراً مبهوراً وكل ينابيع السعادة قد تفجرت فيه. خمسون عاما من السعادة.

الأولاد نائمون، والزوجة نائمة وكل شىء سوف يحدث الآن.

اندفع نحو الباب الحديدى الكبير وفتحه. وقف فى الخارج طويلاً رائعاً.. جلبابه يطير وشعره الأبيض جن من الفرح.

فى الخارج كانت الريح تقول كل شىء. كانت الأشجار تنحنى وتميل ثم تعود لترتعش وتميل من جديد..

خمسون عاماً، خمسون عاما. دع الريح تأكل كل ما تريد.. بعض حبات القمح وتبن كثير.

هذه ليلة الزفاف. الأفراح كل الأفراح. الأشجار تفرح. وكل شىء يبدأ من جديد.

كـانت الزوجـة تقف فى داخل الصـالة يداها على شـعرها، وجسـدها ينتـفض. الريح تأكل صـوتهـا وهي تصرخ:

- ادخل. ادخل.

ولم يسمع.

الأحلام تحمله وتدور به.

- ألن تدخل. البيت يكاد يطير.

- أشـجـارى. عـائلتى تفـرح مـعى. الأشـجـار، تفـرح معى..

كان الجلبـاب الأبيض منفوخـا كـبيرا يتوارى خلف الأشجار وهو يجرى ويقف وسط هذه الأفراح.

دفـعت الزوجـة البـاب الحـديدى تريد أن تغلقـه، وأطلت برأسها تناديه للمرة الأخيرة..

- ادخل يا زوجى، ادخل، العـاصـفـة شـديدة وقـدمـاك ضعيفتان.

رد عليها من بعيد وفى صوته غناء:

- دعيها تهب. أريدها أن تهب.. أريدها أن تهب.

عاد صوتها يسأل:

- والأولاد ماذا أقول لهم عندما يسألون عنك.

- قولي لهم إنه خرج مع العاصفة وأنتم نائمون.

واختفى شبحه الأبيض وسط الأشجار.

يا إلهي البيت بارد..

عندما فتحت الشباك اختلط لون الغروب بخضرة الزرع، الشجيرات البعيدة تساقط منها الورق عندما صفعها الهواء البارد.

شفق أحمر بلون الدم، قرص مدفون فى مسطح أخضر، وأنا خلف الشباك، أرجو أن ينتهى هذا الشئ الحزين.

فى الليل أستريح، فى الليل فقط يصبح لخوفى ووحدتى حدود.

متى يأتى الليل حتى أستطيع أن أنتظر مرة أخرى الصباح!!.

وأما الآن وأنا أرقب الشمس تموت فكل شئ يزدحم أمامى ويتدافع، كل الأشياء لا تريد أن تفوتها هذه الفرصة.

تكاد تخنقنى المشاعر، تشل قدرتى الواهنة على

التمييز، أعرف أن كل الماضي سوف ينهار ليصبح حاضراً. ويطلق الصرخات البكماء في صدرى.

أنا أعرف أننى لن أصرخ، ومتى صرخت؟ للصراخ ناس آخرون غيرنا، أنا لا أصرخ، ولا أضحك. كل شئ يذوب ويصبح بلا حدود ولا لون ويختلط بلون نفسى.

شباك بيتى حديد وعلى الحديد تغزل أمامى قصتى، أنا إلى جوارها أرقبها، أرقب القصة وأرقب الشمس وأرقب الغروب.

الشباك يطل على الحقول، ويطل أيضاً على حافة القرية بيوت تكلم بعضها بعضاً، مائلة. تنام فى الليل وتهمس طول النهار، عند حافة القرية مقهى، وشجرة لبلاب والشباك الآخر يطل على البحر، على الترعة الكبيرة، النبات الأخضر على جانبى الترعة كثيف ولامع. يشد كل روحى عندما أنظر إليه.

شباك هنا. وشباك هناك. شرق وغرب. البيت صحى كبير. بيت قديم. بيت أبى وجدى. والآن بيتى والأرض التى حوله ملكى. أنا عليها المالك الأبيض البدين. أنا بدين

وأبيض. ووحيد .

أمامي حقول وخلفي بيت مظلم ساكن، النور ينسحب منه وتصبح قطع الأثاث أشباحاً لا تخيف، أشباحاً عادية، ساكنة.

أنا . البدين الأبيض، ألمس وجهي، أكتشف أن على شفتي ابتسامة.

عندما كنت في الكلية، كلية الزراعة. كنت في كلية الزراعة ها . ها . ها.! كنت وحيداً وغنياً. وكان لي صديق. وأبي كان لا يزال يسكن هذا البيت. يرسل لي النقود. ويسكر. كنت أعرف أنه يسكر، كنت أرقب الوحدة الكبيرة تسعى إليّ، كنت أعرف أنه سيموت، كنت أعرف أني سأكون مثله. مالكاً أبيض سميناً يسكر، ومات وأصبحت مثله ولكنني لا أسكر.

. كيف يسكر من يحلم؟، إنه حلم، أنا أحلم حلماً طويلاً ولن ينتهي. سأطل من الشباك إلى الشباك. من البحر إلى حافة القرية.

ما حدث أمس لم يوقظني، عندما قال لي الرجل إنه

قتلها لم أستيقظ، عندما قال لي إنه قتلها وداعب شاربه لم أستيقظ. هل أنا ميت؟ إنني أبتسم. لا يمكن أن أكون قد مت.

متى يموت الإنسان، كيف يشعر أنه مات.

من كان مثلي لا يموت، هذا هو الجمال. هو العذاب. وهو الغرابة.

صديقي الذي كان معي في الكلية كان صاحب صوت عريض، الآن قد تزوج وأنجب ثلاثة. قال لي:

– ماذا دهاك الليلة؟.

– الليلة؟. أبداً. لماذا. أنا. لا ولكن.

أتكلم هكذا دائماً، كلمات متقطعة. كنت أتكلم هكذا دائماً كلمات متقطعة في تلك الأيام التي كنت أتكلم فيها

– الليلة؟. أبداً. لماذا. أنا. لا. ولكن.

– أنا لا أطيق أن أراك هكذا. أنت تدفن الأشياء تحت لحمك الغزير.

ابتسمت له، فغضب، وقال :

– ألن تتكلم أبداً، ألن تنطق أبداً. أنا صـديقك منذ

سنوات وأنت لا تتكلم. هل يجب أن أحرقك بالنار حتى تتكلم.

كان يهزنى من كتفى، ويهز رأسه، ثم اعتراه اليأس .

كانت هذه هى المرة الأخيرة التى يهزنى فيها من كتفى إنسان ويومها لم أتكلم، راحت منى الفرصة.

أرى يده تمتد نحوى تحاول أن تهزنى. لكننى الآن بدين وأبيض. حتى الشئ الذى حدث أمس لم يهزنى .

كانت خادمتى، تغسل كل ملابسى، تعد لى الطعام. كانت تدلك لى قدمى فى البرد وتروى لى حكايات القرية، أقول لها احضرى لى هذا الكتاب، اغلقى هذا الباب، ارفعى هذه الأطباق، كانت تتعثر فى ثوبها الأسود الطويل وهى تذهب وتجيئ فى الصالة وفى المطبخ وفى الطرقات.

لها أنف دقيق، وقدمان كبيرتان. عيونها صغيرة، وعلى جبهتها خصلة شعر أسود .

قالت لى قبل أن تموت بأيام، وهى تقف إلى جوار الكرسى الكبير الذى أجلس عليه.

– إنهم يبيعون القطن فى القرية يا سيدى، ويذكرون

فضلك وكرمك. سمعتهم وأنا أشترى من البقال، وعندما عرفوا أننى واقفة قالوا لى. احملى شكرنا إلى السيد.

كانت تبتسم وكان فى وجهها فخر، ومضيت أنا أقرأ فى الكتاب. وظلت واقفة فترة وكأنها تدعو لى ثم انصرفت.

عندما طرق أخوها الباب أمس كنت أقرأ وكانت هى فى المطبخ. جاء إلى وقال :

– أختى جاءها عريس وسوف تتزوج .

وكأن ذبابة عبرت أمام وجهى وقلت له :

– متى ؟.

– سوف آخذها الليلة، فعندنا تبدأ الاستعدادات مبكرة،

خرجت معه، كل هذا حدث أمس فقط. بيننا وبينه غروب كهذا. احتفال حزين كهذا الذى أشهده. كل شئ يبدأ دائماً صغيراً ثم يكبر.

عندما خرجت قبلت يدى. انحنى جسدها الطويل وقبلت يدى وهى تكبت شيئاً ظننته بكاء. كدت ساعتها أن

أرتعش. كادت لمسة شفتيها على ظهر يدى توقظ شيئا فى. لكننى سحبت يدى. كما انسحبت من المرأة التى قالت فى القاهرة وأنا طالب :

- أريد أن أتزوجك .

كانت تأتى إلى شقتى الكبيرة فى القاهرة. لم تكن تأتى إلا إلىّ أنا. كانت موظفة وتضع كحلاً ملوناً. قدمها لى صديقى ذو الصوت العريض وبدأت تزورنى كل عصر. كانت تغلق النوافذ بنفسها. وكانت تقبلنى وتلصق جسدها بجسدى البدين الأبيض. كنت ألمس ظهرها وأمر بأصابعى على شعرها. قالت لى : أنا أريد أن أتزوجك. وأطفأت نور الحجرة. انسحبت أنا، كنت أعرف أننى يجب أن أبقى وحيداً. كانت الحياة مرسومة أمامى ولم أكن أملك ما أغيرها به.

شئ بارع. رائع. جميل وهاج. لم يوجد ولن يوجد. شئ بارع. رائع. جميل وهاج. جوهرة ناقصة فى التاج، وبدونها لن يشع أبداً بريق. وسوف تغرب الشمس وتنطفئ الألوان من الحقول قبل أن يشرق هذا الشئ

الرائع. البارع. الجميل. الوهاج.

قتلت . ماتت. جثتها الآن في الماء.

خادمتي.

بعد أن خرجت راقبتها هي وأخاها وثلاثة رجال يسيرون في الطريق ينبعث خلفهم تراب. كانت هي كتلة سوداء.

خادمتي !!

جلاليبهم ملونة. من الشباك رأيتهم وهم يجلسون في المقهى تحت شجرة اللبلاب. يتهامسون. اجتمعت رؤوسهم. وعرفت أن شيئاً ما سوف يحدث. كانت خادمتي تجلس ككومة من السواد إلى جوار المقهى. وهم يتهامسون. وراح واحد. وجاء. وأنا في الشباك. وبعد أن جاء قاموا جميعاً. جلاليبهم الملونة وجلبابها الأسود. أمسكت بحديد الشباك. كان الحديد بارداً. واختفت جلاليبهم الملونة وجلبابها الأسود. كانت الشمس تغرب.

شمس الأمس تغرب. عرفت أن الشمس لن تكون أبداً مرة أخرى كهذه الشمس. سوف تكون دائماً ملونة بالدم.

اختفى جلبابها الأسود وجلاليبهم الملونة فى قرص الشمس.ابتلعهم قرص الشمس وسقط.

أغلقت النافذة. هذه النافذة أغلقتها أمس بعد أن غربت الشمس. ذهبت إلى سريرى الأبيض. كان السرير بارداً، كان في السقف برص صغير يجرى، صوته يصر فى أذنى زاعقاً بشئ معين لم أفهمه ولكننى لم أنم.

الليلة الماضية. لم أنم!

ذهبت إلى الشباك الآخر فى الناحية الشرقية، الشباك الذى يطل على الترعة، كانت الدنيا ظلاماً ولم يكن هناك سوى شراع أبيض صغير راحل.

لم يكن هناك فى الظلام سوى الشراع الأبيض الراحل. أغلقت الشباك. وانتظرت حتى الفجر.

فى الفجر سمعت طرقات على الباب. نظرت إلى الشباك وكان أخوها يقف على الباب. والندى لا يزال يبلل أوراق الشجر.

قال :

– أريد أن أدخل لكى آخذ ملابسها وبقية المرتب. إنها

ماتت. قتلناها. وأثرها يجب أن يختفي.

الآن سقطت الشمس .

غربت .

سوف أغلق النافذة .

يا إلهي . البيت بارد!!

طعام وشراب

سكن إلى جوارنا جار جديد. لم أر له عفشاً يدخل. كما لم أر له زوجة أو أطفال.

ضوء خافت وحيد كان يبقى مضاء ليلاً ونهاراً، في صالة الشقة وعلى الباب لافتة نحاسية قديمة مكتوب عليها – عجيب غريب. أستاذ في الكيمياء.

كنت أمر على الشقة كل ليلة وأنا ذاهب لشراء الخبز لأسرتي من الفرن المجاور.. أتلكأ أمام الزجاج الأصفر على باب شقته والضوء الخافت يجذبني فلا أسمع صوتاً. قد أسمع حركة أقدامه. قد أسمع صوت صنبور مفتوح. لكنني لم أسمع شيئاً آخر.

وأنا عائد من مشوار العيش، أحمل خبزاً ساخناً، كنت أتوقف مرة أخرى عند الزجاج الأصفر، لكنني لم أحصل على إجابة. عندما كنت أسأل من هم أكبر مني، أبي أو أخي أو بعض الجيران مثلاً.. كنت أشعر بهم يتهربون من

السؤال ويتعمدون تغيير الموضوع:

في ليلة من ليالي أغسطس الحارة، وجدت الزجاج الأصفر مفتوحا، ومن خلال حديد الباب رأيته يتحرك داخل الشقة المعتمة كان يرتدي ملابس غريبة، شئ بين الجلابية وقميص المجانين أو الأطباء. كنت عائداً أحمل الخبز الساخن. اقترب من الحديد وقال بصوت له صدى في الشقة الفارغة..

- هل يمكن أن تبيع لى رغيفاً..

قلت - هذا خبز العشاء والإفطار لأسرتي.. لكنني أستطيع أن أعطيك الرغيف الذي يخصني..

تناول الرغيف مني. وابتسم ابتسامة شيقة جميلة. وعاد إلى الخفاء. عاد الزجاج الأصفر يحجب عني كل شئ.

ذات يوم وأنا أحاول التلصص بعيوني وآذاني عبر الزجاج. فتح لى الباب فجأة، قال بنفس الصوت المحايد القديم.

- لماذا لم تطرق الباب.

- أنت لا تفتح لأحد.

- وهل طرقت ؟ ادخل. لماذا لا تدخل؟.

في وسط الصالة كانت مائدته كبيرة.. عليها جهاز يشبه الميكروسكوب وأكواب مختلفة الأحجام، فيها ماء.

لم أضع وقتاً، وسألت ماذا تفعل.

قال :

- أبحث في الماء. هل تريد أن ترى؟.

قادني إلى الجهاز. وضعت عيني فرأيت أشياء غريبة.. مخلوقات صغيرة كثيرة تتقاتل في ضراوة.. كائنات تقطع أذرع بعضها، وتجز الرقبة، وتقطع الألسنة، أكوام من الأذرع الصغيرة وأكوام من الأرجل المقطوعة، كائنات تهشم رؤوساً صغيرة.

رفعت رأسي في فزع .. قال :

- هل تعرف ماذا رأيت ..

قلت :

- شئ بشع .

قال :

لا، بل نقطة ماء .

قلت :

لن أشرب بعد اليوم..

بل ستشرب عندما يستبد بك العطش.

وخرجت مسرعاً.

في بطن الحوت

لم يكن أحد منا فى الفصل يعرف مدى ثراء الأخوين: رجب: حسين وإبراهيم، فقد كانا صامتين متباعدين. وكان فى انضباطهما والتزامهما للسلوك الطيب ما يوحى بأنهما قد جاءا من وسط عال جدا وغريب. فعلى الرغم من أن الاسم: رجب يثبت مصريتهما، إلا أن هناك أقوالا كثيرة عن أن الأم تنتمى إلى عائلة شامية، أو ربما أوربية، بالغة الثراء. هما ليسا توءمين فإبراهيم أكبر من حسين بعام واحد. إلا أن حسين يبدو دائماً أكثر وأشد وأوضح حضورا فى كل المواقف.

حاولت أن أتذكر أصغر التفاصيل عن السنوات التى أمضيناها معا في مدرسة العباسية الثانوية عندما قررت أن أزور مؤسسة رجب للاستيراد والتصدير لكى أبحث عندهم عن حل لمشاكلى المالية المتفاقمة.

تذكرت أن إبراهيم كان يجلس قريبا من الصفوف

الخلفية إلى جوار شباك، وأن مكانى كان وراءه مباشرة، بينما يجلس حسين فى قلب الصفوف الأمامية، مزهوا بعض الشىء، محاطا بعناية مركزة من زملائه والمدرسين معا. كما تذكرت أن الفصل كله كان يمكن تقسيمه إلى مستفيدين دائرين فى فلك الأخوين رجب، أو متباعدين متفرجين عليهما، مراقبين لهما، بعيون ظاهرة، أو من طرف خفى. كما تذكرت أننى كنت معجبا بوقار إبراهيم وهدوئه. فعلى الرغم من حضور حسين الظاهر المتعدد الألوان، إلا أن هذا لم يمنع إبراهيم من أن يتمتع بمكانة كبير العائلة الوقور المتزن. كنا فى نهاية الدراسة الثانوية. وكانت «التوجيهية» فى ذلك الوقت هى الشهادة المحترمة، التى يتوقف الأغنياء بعدها عن التعليم لكى يديروا شئون المال أو الزراعة.

عندما دخلت إلى مكتب رجب للتصدير والاستيراد، الذى يقع فى شقة فاخرة، من شقق وسط القاهرة القديمة، أحسست أننى محاط بجو أمريكى بالغ النظافة والإتقان. لم تمض لحظات حتى كانت السكرتيرة اللبقة

الجميلة قد عرفت عني كل شيء. أحسست أنها قد عرفت – أيضاً – كل ذكريات علاقتي القديمة بالأخوين. بل وكأنها عرفت – أيضاً – رأيي وتقييمي لكل منهما. أعلنت لي – بكل أسف – أن حسين بك كان يسعده طبعاً أن يراني، لولا أنه الآن في سفر قصير بالخارج.

أما إبراهيم بك، فإنها تعتقد أن باستطاعتها تدبير لقاء سريع معه، ربما الآن. وعادت لكي تزف لي خبر أنه ينتظرني في شقته العلوية الواقعة في نفس العمارة.

وأنا في طريقي إلى شقة إبراهيم بك، حاولت أن أحدد بالضبط ما الذي سوف أطلبه. كان الشيء المنطقي الوحيد هو أن أطلب إلحاقي بوظيفة بعد الظهر، ذات مرتب معقول – أو كبير – أعيد به توازن حياتي المالي المختل. كما حاولت أن أستجمع في ذهني قصصاً أو طرائف عن ذكريا المشتركة، توحي بقدراتي في طرائف عن ذكرياتنا المشتركة، توحي بقدراتي في العلاقات العامة والاتصال بالناس. وكنت أعتقد أن إبراهيم بك – بالذات – سوف يكون مؤيداً لطلبي هذا.

أدخلوني عليه في شرفته الواسعة التي تطل على لا مكان وأغرب ما شعرت به أن الضوء هنا ضوء خاص. وأنه من الصعب على أن أعرف في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار نحن. كان إبراهيم عجوزاً بعيدا في آخر الشرفة، يرتدى ملابس فضفاضة مريحة، وأمامه زجاجة ويسكى فاخرة، وفى المكان موسيقى كأنها جزء من فيلم سينمائى قديم.

فيض المشاعر، وكثرة الكلمات الغامضة المشحونة بالعواطف جعلتنى أدرك سريعا أنه قد شرب كثيرا. أجلسنى فى مقعد قريب منه، وصب لى فى ترحاب كئوساً كثيرة متتالية، وهو يلتفت إلى بنفس الوجه القديم. يحاول أن يستعيد ذكرياتنا معا، فأقدم له أنا - بدورى - تفاصيل حميمة، تدفعه إلى التدفق فى الحديث، وفى الشراب. عاصفة غريبة من المشاعر جعلته يعلن لى - أنا الصديق القديم - أنه لن يبقى إلى الأبد في بطن حسين. فى كرشه. وأنه لن يحتمل استمرار هذا الحال.

بعد وقت لا أدرى إن كان طويلا أو قصيرا ، قال لى إن

حسين حوت. وأنه يستعد لكى يبتلع كل شىء، وأنه لن يسمح بذلك أبدا. لابد أن يعرف كل منا حدوده، وإذا كان يريد الانفصال والتقسيم، فليكن، ولكن يجب أن يعرف أنه هو السبب، وليتحمل نتائج الفضيحة.

حاولت أن أجيبه بكل ما يمكننى من لباقة، مظهراً براعتى فى إصلاح ذات البين، ولم ينقذنى من التورط فى الحديث، سوى ظهور السكرتيرة اللبقة الجميلة، معلنة لنا أن إبراهيم بك مطلوب لموعد هام، وأن هناك سيارة معدة لكى تنقلنى - أنا - إلى أى مكان أريد.

خطفوا اللعبة

قررت إدارة مرور القاهرة إرسال الشاويش السيد زينهم بأوراق المخالفة رقم ٣٩٨ مرور حلوان من الإدارة العامة بميدان التحرير إلى محكمة مرور حلوان للفصل في القضية.

قال الضابط للسيد زينهم هذا الكلام عندما كانت الساعة تقارب الرابعة والنصف ظهراً. المكتب الخالي الكبير الذي يجلس فيه الضابط يبدو وحيداً جداً تطل نوافذه الواسعة على الميدان الكبير.

لم يكن هناك في الميدان ضوضاء، أو مرور، أو حركة كثيرة. الشمس تسرع بالاختفاء وراء العمارات الكبيرة الواقعة على النيل. والسجادة المفروشة في الحجرة الواسعة لونها الكلي صعب التحديد، وخيوط نسيجها حائلة بلا لون. في أطراف الحجرة مكاتب خالية غامقة اللون، عليها دوسيهات قليلة مرصوصة في خانات

خشبية. المكاتب لا تلمع، وأرجلها الخشبية متآكلة. أما الفراغ الذى فى الحجرة فكان يبدو كبيراً أكثر من اللازم.

ليس فى مبنى الإدارة الآن سوى موظفين قلائل، متناثرين، كل منهم فى حجرته، حجرة كبيرة خالية كهذه، يشعر كل واحد منهم بالبرودة وبالفراغ. تلمع بين الحين والآخر الزراير النحاسية اللامعة فى سترة عسكرى أو ضابط، وتسمع بين الحين والآخر فى طرقات المبنى خبطات حذاء عسكرى ثقيل.

لم يكن من طبيعة الشاويش سيد زينهم أن يرفض أو يحتج على مثل هذه المهمات المفاجئة. فعلى الرغم من أن الساعة قد جاوزت الرابعة، وعلى الرغم من أنه كان قد فكر فى العودة إلى البيت إلا أن إحساسا عاماً بالترحيب واللامبالاة كسا وجهه عندما قال الملازم:

- أنت بقى تاخد الورق ده.. وتطلع على حلوان.

لو كان الشاويش قد قال للضابط أو تركه يشعر أن هناك غضاضة فى الموقف، أو إنه يفكر فى الرفض، أو أنه يريد أن يفعل شيئاً آخراً، لنادى الضابط على

عسكرى آخر، فهذا الملازم طيب ويحب السيد زينهم.. ولكن الشاويش لم يقل شيئاً غير :

- أمرك يا افندم ..

قام الضابط واقفاً وأخذ يتأمل الشاويش سيد زينهم ليرى لماذا قبل هذه المهمة بهذه السهولة. كان يحدق فى وجهه ولا يستطيع أن يفهم. ولكنه قال فى لهجة ملولة وكأنه يكلم نفسه :

- أظن مش حاتلاقى حد هناك غير الحاجب، سلمه الورق وخلاص ..

تحرك الشاويش سيد زينهم بعد أن أدى تحية عسكرية. ووقف الضابط وحيداً ينظر من النافذة الواسعة على الميدان الكبير. بعد أن خرج السيد زينهم من الحجرة رن فى الفراغ الصامت صوت جرس التليفون. استرد الملازم وحيد عيونه من على الميدان، وعلت وجهه حمرة مفاجئة. أحس أنه صغير فى الحجرة. وأن التليفون يدعوه إلى عالم خارجى واسع. سكتت نفسه، ورفع السماعة. كان متأكداً أنه سيسمع صوتها :

- إلهام .

- .. أهلا

- فيه حد معاك.

نظر حوله إلى الحجرة الفارغة واستدار بسلك التليفون جلس على المقعد. حدق في صورة كبيرة مثبتة على الحائط أمامه.. وقال :

- إنتى معايا طول الوقت .

علت ضحكاتها في الطرف الآخر وأحس هو بأنه يجب ألا يفشل. كل الذين يقلدهم يستطيعون قول كلمات الحب دون أن ترتجف وجوههم. وجهه يجب أن يظل جامداً، كهذه الوجوه في الصور، ككل الذين يقلدهم. قالت :

- الليلة .. لازم.. كلهم.. حيكونوا موجودين.. تعرف إنت لو قلت أي حاجة حاكون زعلانه منك.

- ستي.. أنا أقدر .

سمعها هذه «ستي.. أنا أقدر». كل ما أستطيع أن أقوله، وأشعر أنه ملائم قاله قبلي آخرون. أنا فقط أقلدهم. وساد خط التليفون صمت. كانت أنفاسها الحارة

المفتعلة تحاول أن تصل إليه لتحدث فيه شعوراً معيناً.

وكان هو مستسلماً خائراً فى الغرفة الكبيرة الواسعة.

. انطلق الشاويش السيد زينهم من البوابة الكبيرة على الموتسيكل الأحمر السريع. كانت ملابسه البيضاء والسوداء تتناسق فوق الموتسيكل الأحمر فى رشاقة وجمال وهو يعبر الميدان الكبير، الذى لا يتحرك فيه سوى تكسيات بطيئة زاحفة، دارت يده على اليد الكاوتش فعلا صوت الآلة مردداً قوة الشاويش السيد زينهم وحماسه للحياة. فى بطنه ثقل رغيف الفول وفى ركبه وسيقانه فحولة الرابعة والثلاثين. الحذاء الميرى الثقيل متمكن من الفرامل فى الرجل، والصدر مفتوح لكل هواء الكورنيش. وليت نعيمة تدرى بكل هذا الجمال. إنها تعرف لذة واحدة فقط. وأنت تعرف لذة جسدها الأبيض.. وكل لذة أخرى. هذه السرعة لذة. ومن يدرى قد تكون نعيمة تفكر فىّ أنا الآن بالذات. قد تكون فى الشرفة الآن تنتظر، جسدها نظيف، وتفكر فى راحتى .. ألا يمكن !

أمسك فخرى السيد زينهم بذيل فستان أمه نعيمة

وقال لها:

– أنا باقولك جيبى تعريفة.

كان يقفز في الغرفة العارية، دافعا أمه إلى المائدة المستديرة التى تشغل منتصف الفراغ، وقد علا بنطلونه القصير ووجهه تراب الشارع.

– طيب ودينى لكون قايلة لأبوك.. أما أشوف أنا الشغل بتاعك ده.

وعلا صراخ فضرى، وتعالت ضربات حذائه. ولكن غضبه مالبث أن ذاب، وحلت على البيت لحظة انتظار فارغ. ولمحت نعيمة جزءاً من السرير العالى المفروش بالبياض، وتخيلت أشياء سريعة عابرة جعلتها بسرعة تشعر بوجود الولد فى الصالة وصمته المريب. ورأت نفسها تغرف للسيد طبق البامية، وفرحت بالدسم الأحمر على أطراف الطبق، وقطعتى اللحم الغامقتين البارزتين فى النصف. وانطلق فى صدرها صوت أغنية لعوب.

لم يكن الملازم وحيد قد فرغ من الحديث فى التليفون بعد، حتى فتح الباب وجه ضابط آخر. شاب، شعر شاربه

أصفر. أحس وحيد أنه مهدد، ومهزوم، وأنه مهاجم، ولم يدر ماذا عليه أن يفعل. انتصب واقفاً، وداعبت يده الممدودة آلة التليفون وانطلق من داخله صوت غريب ومتحشرج :

– لا يافندم، لا، التعليمات بلغناها.

وابتسم في انتصار أبله إلى الشاب الأنيق الواقف أمامه، مدحت أطول أفراد الشلة لساناً.. ماذا يهم؟ هل تظن أنه قد فهم أنني أكلم فتاة. لا أظن. ماذا يهم على أية حال.

– أنا راح اتصل بيكم يا أفندم وأبلغكم التعليمات.

أعاد السماعة إلى وضعها وبدت على وجهه علامات الذكاء. عاد يستجمع شخصيته المفككة ليواجه بها الموقف المتأزم.. حياته كانت هكذا استجماع للشخصية المفككة أمام مواقف متأزمة. إنه يشعر أنه مظلوم. وأنه لا شخصية له.

– أهلاً مدحت.

كان الشاويش السيد زينهم قد وصل إلى مبنى

مستشفى «هرمل» القديم، وكانت عيونه تشعر بأنه كان على الشاطئ الآخر من النيل يوماً ما، مبان، وأنها راحت.

كان هذا يولد فى نفس الشاويش السيد زينهم شعوراً خفيفاً، ولكنه لم يكن يهتم.. كان دائماً لا يهتم. إنه يعرف هذا الشعور الخفيف جيداً.. ويعرف أيضاً كيف يطرده. إن طرد هذا الشعور الخفيف من شروط الرجولة.

كان صوت الموتوسيكل واهتزازات الآلة تحت جسم الشاويش السيد زينهم يبعثان فى منظر الشارع شعوراً راقصاً جميلاً، والشاويش يتحرك ويهتز جسده الملئ القوى فوق الموتوسيكل كأنه فهد رشيق. شارع الأسفلت ساكن يمتد تحت العجلات راضخاً سعيداً. كان هناك جو من الفرح والسعادة في الشارع. وانطلقت حمامة كبيرة كانت راقدة داخل شجرة وكأنها فزعت من صوت الموتوسيكل. ولكنها لم تكن حزينة عندما رأت هذا المنظر البهيج، والشاويش أيضاً كان سعيداً لأنه رأى حمامة تطير. ليس فى الحى الذى يسكنه حمام يطير. استدار

الموتوسيكل فى يده ليتفادى طفلاً صغيراً يجرى وتعجب لماذا يلح عليه خاطر أمه فى هذه الأيام كثيراً.

كان فخرى قد انتصر وأخذ من أمه التعريفة ليتركها وحيدة فى البيت فيأتيها من الشارع صوته وهو يلعب ويصرخ فى الأولاد. لم يكن هناك أمامها سوى أن ترقد فى السرير وتنتظر مجئ أبو فخرى. وقد فعلت.

الضابط وحيد كان قد تخلص من مدحت بصعوبة وأحس فى قرارة نفسه أنه أهين وأن مدحت لن يسكت أبداً ولكنه سيشيع فى الإدارة كلها أنه كان يكلم فتاة. إنه لا يسكت ؟.. غداً ستعرف الدنيا كلها. وجلس الضابط وحيد وكان ينتظر فى خوف.

انطلق الشاويش زينهم إلى الكورنيش الكبير عبر الكوبرى العالى وهبط بالموتوسيكل على الانحدار فى رشاقة وخفة وامتد أمامه الشارع الأسود الطويل. وكان النيل إلى جواره أبيض واسعاً ينعكس على سطحه بريق الضوء.. وعلى الشاطئ الآخر يتراكم النخيل فى وسط عتمة باردة.

اهتزت عجلات الموتوسيكل وانبطح الشاويش زينهم طويلاً ممداً فى أرض الشارع منكفئاً على وجهه. أنفه فى وسط الأسفلت وحوله دائرة صغيرة من الدماء الحارة.

انتفض الضابط وحيد من الفزع عندما دق جرس التليفون فى الحجرة. وشئ ما شك نعيمة فى قلبها عندما سمعت صرخات فخرى فى الحارة. كان الأطفال قد خطفوا منه اللعبة.

الجميع حزانى فى جنازة الشاويش السيد زينهم الصغيرة. بعض صغار الضباط يقفون على بعد أمتار قليلة من القبر. ويقف أمامهم فخرى يدور برأسه فى كل اتجاه ويده تشد البنطلون القصير الذى عفره تراب المقابر.

إلى جوار فتحة القبر مباشرة تكورت نعيمة ملفوفة فى ردائها الأسود الذى يضغط على لحمها الأبيض ويبرز مفاتنها.

صدور الضباط ملأها الضيق. وأنهك كبرياءهم الأسى والعرق. اللحاد بطئ ومتكاسل، وتحوم فوق المكان ذكرى

صرخات الزوجة الملتاعة.

أحس الجميع بسخونة الشمس. وأحسوا بالعرى الأجرد الذى يحيطهم وراقبوا الظل الذى تلقيه شواهد القبوز على رمل الجبانة.

وصرخت نعيمة الأرملة صرخة نهائية عندما بدأ اللحاد يهيل على الجثة التراب.

أسقط فى أيديهم جميعاً. وطلعت من صدورهم زفرة عالية.

المسافر الأبدي

مات صديقى سالم دون أن يسافر. كان قد أمضى نصف حياته يتطلع فى الخرائط ونشرات المدن.. ويجمع قصاصات عن المغامرين وأصحاب الرحلات الكبيرة والمثيرة.

فى أواخر المدرسة الثانوية كان صاحب أحسن كراسات للجغرافيا، وكان دقيقاً جداً فى حساب اختلافات الوقت بين البلاد، وفى معرفة التغيرات المرتبطة بخطوط العرض والطول.

اختلفت بنا طرق الحياة، ولكنه أمضى فترة شباب غريبة، سيطر فيها على خياله حلم السفر، وأصبح دائم الزيارة للسفارات الأجنبية، والتردد على المراكز الثقافية. وكان يحمل تحت إبطه دائماً دوسيها أسود، يزداد ضخامة مع الأيام، يحوى الخرائط والنشرات السياحية التى كان يعتز بها جداً ويحافظ على أطرافها من البلى

والتثنى بقطع من الورق اللاصق.

غاب عني، وغبنا جميعاً فى عملية طويلة بلا نهاية، تمثلت في اللهاث وراء لقمة العيش، والأتوبيسات، واجترار الأحلام في أركان المقاهى.

أخذ حلمه بالسفر أشكالاً مرضية، وفكر فى الهجرة، واستخرج جواز السفر، وأصبح يعرضه على الأصدقاء، ويؤكد أنه سيسافر بعد أسبوع أو أيام.. ولم يسافر.. واختفى. وعاد يظهر في الشوارع مهزوماً، وصمت شهوراً وعرف بعد ذلك أنه تزوج وأنه يعيش فى حى شعبى بعيد.. يذهب إليه كل ليلة سيراً على الأقدام.

كنت ألتقى به أحياناً فى مقهى أو بار، ونجلس فى صمت. وعندما كان يطرق برأسه وهو يطلى حذاءه كانت تعتلى عينيه وجبهته نفس تلك البوارق التى كانت تضنيه وهو بعد شاب صغير. ويتجسد فى وجهه ذلك الحنين اللاسع للسفر، والذى لم ينطفئ قط.

عندما أخبرتنى ابنته الشابة بموته على فراشه. قالت لى إنه لم يمرض سوى أيام قليلة، وإنه لم يكن يقرأ وهو

راقد على فراش المرض سوى أخبار السفن والمطارات.

وقالت إنها وجدت تحت وسادته جواز السفر به صورته القديمة. وهى تخرج الجواز من حقيبة المدرسة لمحت على وجهها نفس ذلك الشوق والحنين.. وصاحبتها فى مشوار طويل على شاطئ النيل.

ياسمين من نابلس

مهداة إلى فدوى طوقان

لا أذكر بالضبط كم كتاباً قرأت فى حياتى، لكن كتاب الشاعرة «فدوى طوقان» رحلة جبلية. رحلة صعبة، أدار رأسى، وأدار فى. نعم أدارنى لكى أضع وجهى فى وجهك هو الذى أدارنى لكى أنظر للمرة الأخيرة فى عيونك العسلية العميقة. تلك العيون التى منحتنى نظرة لم أرها قبل ذلك ولا بعد ذلك - أبداً - فى حياتى .

(هل يعرف أحد كيف تمر بنا الحياة نحن النساء العربيات. حياتنا بطيئة الإيقاع طويلة، مليئة بآلاف آلاف الأشياء الصغيرة المتلاحقة تبعدنا عن الروح، عن الحب، عن الكتب، عن كل ما هو ساكن تحت الجلد.

سل أى أم، أو زوجة، أو عشيقة، أو مطلقة، أو أرملة مثلى، كم من الوقت تملك لنفسها؟ وقت تقضيه خالية حرة، صافية، غير مكدرة، أو مقهورة. أو مشلولة عاجزة عن التصرف. لحظات قليلة جداً فى كل الحياة لحظاتى

القليلة – هذه – أمضيت أغلبها معك. أقصد في صحبة ذكراك وطيف خيالك.

لا تظن أنني بعد كل هذا العمر أكتب لك خطاب غرام، أنت لم تعد موجوداً، ولا أنا عدت صالحة للحب. خطابى صوت ناى بعيد، وقد أصبحت أنا حصاناً وحيداً عجوزاً يرقب وادى الحياة الأخضر فى حزن بارد.

لا تحزن من أجلى، إن كنت مازلت قادراً على الحزن والمشاعر، فأنا قد شبعت من كل ما فى الحياة من متع ومتاعب، من كذب ولذة وعذاب.

حالى الآن قريب من حالك، لم أعد أعرف سوى ذلك الحزن البارد. أستيقظ به، وأشرب قهوتى معه، وأسحبه ورائى فى خطواتى الضيقة القليلة أخطوها فى بيتى الكبير الخالى. أعيد تنظيم أشيائى التى لم يمسسها أحد.

مات الزوج، ورحل الأولاد الثلاثة إلى أطراف الأرض، خلت لى ولك صحراء بيضاء تقع خارج الزمان والمكان.

هل مازلت تذكر عندما اتهمنى أخى الكبير فيك. لا

أعرف تهمتى بالضبط. لكنه قال إننى فاجرة. ويجب أن أمنع من الذهاب إلى المدرسة. وأن أبقى فى البيت. كنت وقتها غارقة فى حبك. كل شئ غير حبك كان مجرد أوهام قاسية. حبك كان يجعل الحياة بارعة الجمال. لدرجة أننى لم أنتبه إلى أن الاتهام والحكم سوف يحرمنى من الماء والهواء، وأننى أدخل إلى بحار مظلمة، أتعلق فيها بالأشياء فلا تنقذنى. يداى لا تصل أبداً إلى ملامستك، عذاب العذارى، محيط من الألم والذنب والسعادة، لم أنتبه إلى أن الإعدام قد نفذ فى كل غزلان الأرض. وأننى قد خرجت وحدى منفية بعيداً عنك إلى الأبد.

ماذا حدث لكى يفعلوا بنا كل هذا؟ عندما رأيتك واقفاً أمامى تسد بقامتك طريقى وتفتحه، انحلت يداى المعقودتان على صدرى، وانفرطت الكتب والكراريس على الأرض، لم يجمعها لى أحد، جمعتها أنت معى، ووهبتنى عيناك العسليتان حينئذ نظرتنا الخالدة، ووضعت بسرعة فى رأسى المرتجف زهرة الياسمين، هل فعلاً لامست يدك خدى وجبتهى؟ أظنها بعض أوهام وأساطير.

صليت، وصادقت القطة، وأثاث البيت، وبعد أن حاولت الانتحار، رجعت أخطو على أرض باردة، امتلأت حياتى وأحلامى بطرقات لا نهائية من الرخام، أذكر أن نوافذ البيت وفتحات الضوء لم تعد تدعونى للخروج، نقوش سجاد الصالة أدفن فيها عيونى لكننى - حتماً - أراك. وبيت أبى العربى الكبير فى نابلس تحرقه نار بيضاء باردة من الصمت والذبول. حلمت يومئذ أن طفلى - منك - قدمات وأننى أغسل صحن الدار بالدموع.

لم ينقذنى سوى الاحتلال، فقد اقتلعوا شجرتى، وزرعونى فى مصر، وبقيت أنت فى فلسطين.

حاولت روحى أن تبقى لكى تراك، ولو مرة أخرى وأخيرة، لكننى سجنتها، لم أمت وانخرطت فى طابور اللاجئين الأشقياء.

من لى بتلك الأيام الأولى الآن! ما إن خرجت حتى عدت لى. اقتسمت معك كل شئ، كنت معى كما لم يكن من الممكن أن تكون، نظرت خلفى ولم أتحول إلى امرأة من الملح.

لم أشعر في حلقي حتى بالمرارة. كانت ذكراك وطني، وحريتي. ووجودي المطلق. وهذا مرة أخرى ليس خطاب غرام.

كان قلبي أرضاً طيبة لم تمت فيها بذور وصارت لي معك تلك اللحظات الخاصة التي حدثتك عنها، لحظات، قليلة نادرة، لكن كلها صفاء.

زوجي الطيب المرحوم كان يقترب مني، يلمس خدي وجبهتي ويقول :

– ما أصفى وجهك، عندما تسرحين.

تحملت روحي بغباء حبك، وحبهم : زوجي، وأولادي الثلاثة، تحملت بقدرة الخالق والزمان والمكان. كان في قلبي لك محراب، ونادراً ما شعرت مع زوجي بالخيانة. كنت أقول لنفسي: جنب النخلة دائماً تنبت فسائل خضراء نضرة. لكن ماذا عن الجذور!

نسيج حياتي المضفور كان يحمل دائماً خيطاً منك. أولادي الثلاثة، أستغفر الله، في كل منهم ملمح منك. وكثيراً ما قال لي زوجي وهو يدعوني إليه :

- لو أننا التقينا فى فلسطين.

اليوم - يا حبيبى - وأنا أعانى قراءة كتاب «رحلة جبلية - رحلة صعبة». أعانى معانيه الحارقة، وأعانى من ضعف بصرى، لمحت اسمك فى صفحة الوفيات المطوية فى الرف التحتى من منضدة الصالة.

اسمك هنا، فى مصر، إلى جوارى، فى «الأهرام»، وفى صفحة الوفيات!

الحمد لله، أنهم لم ينشروا صورتك، فقط كتبوا فوق الاسم : «يا أيتها النفس المطمئنة.».

هل شعر أحد. بتلك الجذبة القوية العنيفة التى أحسستها فى شعرى الأبيض الناحل.

الشيخة

في الصباح تسقط الشمس على شوارع القرية حادة وصريحة فتجعل الناس يسيرون لصق الجدران. البحر بعيد عن هذه القرية ولكنه داخل في تركيبها. أصوات الأمواج ترن على الجدران الطينية وملح البحر يضرب في أرض القرية أبيض وكثيباً ويجعل الزراعة على أطرافها ذابلة ومريضة كأنها رأس إنسان أجرب. في الليل تصل إلى القرية أصوات الأمواج.

سواء بالليل أو بالنهار فإن هذه القرية في الحقيقة مكان غريب ومخيف. والشوارع فيها رملية متعرجة والبيوت طينية، جدرانها سميكة وخشنة. وعندما يسقط على القرية الليل تتكور على نفسها وتخبئ ما في جوفها، تزداد رهبة المكان في الليالي التي تخلو فيها السماء من القمر، فيختفي الناس داخل البيوت. وتمتد الشوارع

ثعابين من الظلام. تخلو القرية من كل آثار الحياة ما عدا أضواء شباحبة تتراقص من فتحات البيوت.

أهل القرية – هم أيضاً – فيهم كثير من الغرابة. أكثرهم طويل ونحيف، لون بشرتهم قاتم وأقدامهم كبيرة وخشنة. بعضهم يزرع الأرض البخيلة وبعضهم يصطاد سمك البحر. أرضهم لا تنتج الكثير، وقواربهم لا ترحل إلى البعيد. في نفوسهم ضائقة، وحدود خيالهم تقوم فوق جفونهم. عيونهم تحدق في الأشياء في بلادة وبله، ويبتسمون دون أن تنشرح صدورهم.

يقال إنه كان لهذه القرية رب كبير وقوى – وضع كل شيء في مكانه وخلق هؤلاء الناس وشكلهم كما يحب وتركهم في مكانهم هذا إلى جوار البحر، ولم يدر أحد هل يجب أن تسير الحياة بهم إلى الأمام أم إلى الخلف. فمنذ سنوات والحياة أصبحت عندهم بلا معنى.. لا شيء في القرية يزدهر ولا شيء يبلغ قمته.. وبعض الطيور تهجر البحر وتحوم فوق القرية ملقية ظلالها على الأرض الرملية، ولكنها لا تلبث أن تعود من حيث أتت تاركة

القرية تحرقها الشمس بالنهار ويسقط عليها الظلام فى الليل..

قبل أن يستريح رب هذه القرية ترك فى وسطها شيخة. كانت تختلف عن كل الأهالى. جسدها سمين ومربع. امرأة فى الأربعين، عيونها حادة وقوية، وأطرافها صغيرة، وصوتها عريض وقديم.

كانت هذه المرأة وحدها هى التى تعرف. تمسك فى يدها بلجام الحياة. وتحدق فى عين الشمس. وتسير وحدها فى الظلام. تسكن بيتاً كبيراً قائماً فى وسط القرية، على بابه صخرة سوداء ويطل من بعيد على البحر. فى الليل تجلس على صخرتها السوداء تسمع عويل البحر وتراقب النجوم. فى النهار تخرج لتسير فى شوارع القرية. عيونها تضرب إلى داخل كل بيت. فتختفى النساء من عيونها، ويلتصق الأولاد بالجدران ويسقط فى قلب الرجال الرعب.

لم تكن هذه الشيخة شريرة، على العكس، كانت تحل كل مشاكل القرية. كانت تقول للرجال:

- بكره.. بلاش صيد..

فيمتنع الرجال عن الخروج إلى البحر. كانت تتحسس جسد الفتيات الصغيرات وتقول:

- البنت دى تتجوز.

وبعد أيام يزوج أهل الفتاة ابنتهم لأول عريس.

كانت المشاكل والأسئلة التى تقوم فى القرية تصبح فى يدها هياكل عظيمة تقلبها أمام الأهالى فيستغربون كيف لم يفهموا أنها تحل بهذه الطريقة.

قدرة الشيخة كانت ساطعة كضوء القمر، ولكنها أيضاً كضوء القمر باردة ومخيفة. وأصبحت هذه الشيخة تعرف كل شيء عن الرجال والنساء. أصبحت تنظر إلى الرجال فترى كل شيء فيهم. وأصبحت تعرف ما يدور فى غرفهم المغلقة وما يدور فى عقولهم وصدورهم.

ولما لم يكن هناك مكان آخر يذهب إليه الرجال فى الليل فقد أصبحوا يتجمعون كل ليلة كالفراش أمام بيت الشيخة. وتجلس هى على صخرتها السوداء ويتجمعون هم فى حلقة يرددون أغانى حزينة وبطيئة. ثم تأتى النساء

أيضـاً والأولاد وينعـقـد أمـام بيتـهـا سـامـر القـرية الحزين..

لم تشترك معهم أبداً في الحديث،ولكنها كانت تعرف دائماً كل ما يقال. وكانوا هم يعرفون أنها تعرف ولم يكن هذا يزعجهم فهم يعرفون أنها هى التى تحميهم وأنها هى سر وجودهم. وعندما يكون هناك سؤال أو مشكلة فإنهم يجدون عندها الجواب. والمريض يجد فى غرفتها المغلقة الشفاء. عندها كل ما يكفى، لأن تستمر الحياة كما هى.

ولاشك أنه كان هناك في أعماق قلوب النساء غيرة من وجودها، ولاشك أيضـاً أنه كان يهب فى صدور الرجال فى بعض الأحيان تمرد على سلطانها، لكن عاصفة رملية شديدة، أو هيجان البحر لعدة أيام كان يكفى لأن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه ويجعلهم جميعاً يشعرون بحب الشيخة ويرغبة فى الالتفاف حول بيتها.

كل هذا جعل قدرة الشيخة تتطور. أصبحت تتصور أن الإنسان الذى يقف أمامها، أو يأتى ليسألها سؤالاً ما هو إلا شلة من الخيط لا أحد يعرف أين الخيط الأول فيها

إلا هى. يكفى أن ترفع إصبعها لتمسك بهذا الخيط فتنحل الشلة وتصبح خيطاً طويلاً مفروداً. كانت القرية كلها تشعر بهذه القدرة. تشعر بسلطان الشيخة يكبر ويتعاظم. لكن للأسف لم يكن أحد منهم يعرف كيف يعبر عن شكره لها أو ولائه.

في يوم من الأيام نزل القرية رجل غريب. قامته قصيرة ووجهه شاحب. وجد له عملاً وأقام له مسكناً صغيراً وأصبح من أهل القرية. لم يكن يكلم أحداً ولم يعرف الناس عنه الكثير. كان اسمه منسى.

يحدق فى أجساد النساء. لم يحبه رجال القرية. فى العصر كان يرتقى تلة من الرمال يجلس عليها وحيداً يراقب حركة الناس فى القرية. عندما لاحظت الشيخة وجوده سألت عنه. قال لها الرجال كل ما يعرفون. ثم لم تسأل عنه بعد ذلك. لكن وجوده بدأ يقلقها. بدأت تشعر بأنه حصوة غريبة فى العجين. شبحه وهو جالس فوق التل الرملى يزعجها حتى ولو لم تكن تراه.

مرت شهور والرجل صامت. لا يترك مكانه فوق التلة.

لا يلتف مع أهل القرية حول بيت الشيخة ويدأ الأهالى يضيقون بوجوده ولكنه لم يكن يؤذى أحداً. اختفى يومين متتالين من فوق تلة الرمل. فأرسلت الشيخة أحد الرجال يسأل عنه ولم تمض لحظات إلا وكان فوق التلة فى مكانه المعتاد قبل أن يصله رسول الشيخة.

عادت الأمور تسير كما هى إلا تقطيبة تفكير صغيرة حفرت وجودها على جبهة الشيخة الضيقة.. أصبح من المستحيل أن تنسى الشيخة وجود الرجل لحظة واحدة.

وبعد حوالى سنة من مجئ منسى وفى ليلة باردة أطلت الشيخة من شباك بيتها فرأت الرجل جالساً على تلة الرمل وقد أعطى ظهره لها. فأخذت تحدق فيه واعتراهاشعور حارق وغريب وفجأت نزلت إلى باب البيت واستدعت أحد الرجال وقالت له:

– انده منسى..

فرفع الرجل وجهه فى وجه الشيخة يريد أن يسأل أو يستفهم لكنها كانت قد أشاحت بوجهها إلى الناحية

الأخرى ومضت إلى داخل البيت.

بعد لحظات رأى الجمع الجالس أمام بيت الشيخة منسى يعبر الميدان الرملى بخطوات سريعة ويدلف من باب بيت الشيخة. ولأول مرة منذ زمن أغلق باب البيت قبل أن ينفض سامر القرية، قام الأهالى وأخذوا يتحركون حركات غير مفهومة ويهزون رؤوسهم وقد علاهم الانبهار وعيونهم مفتوحة وكأنهم كلاب تتشمم رائحة شخص غريب. ثم بدأ خوف غريب يملأ نفوسهم وانتعش شىء فى نفوس النساء. ولكن أحدهم لم يقل كلمة واحدة.

كانت النار التي أشعلوها قد قاربت الانطفاء عندما فتح الباب مرة أخرى وخرج منسى يسير بنفس خطواته متجهاً ناحية التلة الرملية. خرجت بعده الشيخة لتقف على الباب وتنادى أحد الرجال، وتتحدث إليه للحظات ثم تدخل بيتها مرة أخرى.

كان خوف الأهالى وتعجبهم قد بلغ غايته عندما عاد الرجل الذى تحدث مع الشيخة ووقف فى وسطهم وقد تهدل فكه واتسعت حدقتاه. كاد وجهه يتصبب منه العرق.

يبدو عليه أنه يفكر وأن التفكير يرهقه. لم يستطع أن يتكلم بسرعة. الناس تتحرك حوله وكأنهم قبيلة بدائية. ثم فجأة قال الرجل:

– الشيخة راح تتجوز منسى بكره العصر.

في عصر اليوم التالي كانت الساحة الرملية التي تمتد أمام بيت الشيخة مرشوشة بالماء، إلى جوار البيت رصت بعض الدكك الخشبية القديمة. تفوح من المكان رائحة غريبة كأنها رائحة فراش رجل وامرأة. الشمس قاربت الغروب وأهالي القرية يتوافدون على الساحة صامتين يجلسون على الدكك بلا همس أو حديث. النساء تأتي من الشوارع الجانبية متلفحات بملابسهن السوداء الجديدة، يدخلن رأساً إلى البيت لتحية العروس ثم يخرجن بعد قليل ليجلسن في طرف الميدان تاركين الدكك للرجال. كانت عيون الرجال تمتد إلى البعيد حيث البحر الأزرق يجذب عيونهم وأرواحهم العاجزة عن الفهم أو الحديث.

وجاء المأذون. نزل منسى من على تلة الرمل.. ودخل البيت الكبير.. وتزوج الشيخة.

في هذه الليلة بعد أن انفض الجمع وانصرف الجميع. بقى أحد الرجال ليتسمع إلى جوار البيت. وقرب منتصف الليل دوى في الصمت صوت الشيخة. وهي تضحك.

- ٢ -

استراحت أجساد النساء من عيون منسى بعد أن تزوج الشيخة، لم يعد يحدق في النساء. ولم يعد يجلس في العصر على تلة الرمل. أصبح جزءاً من أثاث بيت الشيخة القليل..

يجلس دائماً في مدخل البيت المظلم متوارياً يغطيه التراب ويسقط عليه بعض النور الذي يتسرب من الباب. كان يبدو وكأنه كلب عجوز.

أما الشيخة فهي لاتزال تجلس على الباب، على الصخرة السوداء، في الليالي المظلمة. وبعد أن ينفض السامر تحدق في النجوم وتسمع عويل البحر، في يدها عصا صغيرة ترسم بها خطوطاً على الرمال.

فمنذ أن تزوجت منسى وهي في حالة غريبة. إنها

تعـرف أنهـا لن تنجب أولاداً فليس منسى من الرجـال الذين يحـملون الحـيـاة في ظهـورهـم. إنه من أولئك الذين يسقطون صرعى للحياة. ولكنها عندما تقوم من الفراش كانت تشعر بشيء غريب، بقوة خارقة، وسعادة كبيرة. تشعر بأنها سيدة القرية. وبأنها خالدة، فتقوم إلى الخارج، لتجلس على الصخرة السوداء، تحدق في قريتها وتتحسس جسدها. ويبقى منسى في الفراش يتصبب عرقاً.

لقد كان صمته وعيونه قبل الزواج يطلقان في وجهها تحدياً غامضاً.. كانت تشعر أن هناك تحت هذا الجلد شيئاً لا تعرفه. شيئاً يستعصى على قدرتها ومنطقها، وفي ليلة «الدخلة» راقبته، حدقت في عيونه وراقبت أطرافه وهي ترتعش وسألته:

– مالك؟

فتلوى، وفتح فمه ولم يقل كلاماً.

قالت له:

– أنا مراتك..

فتلوى، فتح فمه ولم يقل كلاماً.

للحظات قبل أن تدخل حجرة الزواج، كان قلبها يخفق. كانت تنتظر شيئاً جديداً بارعاً. تصورت أنه سوف يقول لها كلاماً لم تسمعه. وأن صمته وغموضه سوف ينفرجان عن بحار جديدة لم ترتدها. وأحست أنها ذكية لأنها استطاعت أن تعثر عليه وأن تقنعه بالزواج، فكل ما وراءه سيصبح ملكاً لها.

ولكن هذا هو ما وراءه، يتلوى ويفتح فمه ولا يقول كلاماً. إنه يخشاها ويخاف جسدها الأبيض المريع الكبير وينزوى فى ركن الحجرة. شدته وداعبته وحاولت أن توقظ ما فيه. ولكنه كان قد سقط. سقط هو الآخر وأصبح شخصاً عادياً. شلة من الخيط مثلهم جميعاً. عليها هى أن تفك خيطه الأول وتضمه معهم إلى جماعة الأتباع.

وضحكت ليلتها ضحكة كبيرة كان لها دوى فى صمت القرية:

لم تشعر أنها خدعت أو خسرت شيئاً، بل أحست أنها ازدادت قوة واقتنعت بأن كل ما وراء قدرتها فراغ.

راقبت القرية هذا الزواج. وراقبت بيت منسى الصغير وهو يغلق، والتراب يتراكم عليه ويردمه. راقبت منسى وهو يكف عن العمل، ومنسى وهو فى البيت الكبير.. ومنسى وهو يتحول إلى عصا رفيعة في يد الشيخة أو عود قصب. وأصبحت تلة الرمل التى كان يجلس عليها منسى كأنها قبر لشيء لاح واختفى. ظن الناس كما ظنت الشيخة أن القرية بهذا الزواج سوف تقدم على عصر جديد، وأن من هذا الزواج سوف تولد لهم أشياء، ولكنه كان أملا لاح واختفى. وعادوا جميعاً يزرعون أرضهم البخيلة ويرحلون فى قواربهم إلى البحر القريب ليعودوا بأسماك صغيرة. والشيخة فوقهم، بجسدها الأبيض المربع وعيونها الحادة الواعية.

ظل منسى رغم الزواج بعيداً عن أهل القرية. ولكن لم يعد هذا البعد يقلق الشيخة أو يشغل بالها. كان كل ما يميز منسى عن أهل القرية - الطوال النحاف ذوى البشرة القاتمة والأقدام الكبيرة الخشنة - أنه ظل يسأل نفسه:

– ليه الشيخة كده؟.

ظل يسأل نفسه ويتوقع الجواب من داخله. كان دائماً يتوقع أن يعرف نوعاً من الإجابة. أما أهل القرية فلم يكن أحد منهم يسأل. الشيخة موجودة. وقد نظموا أنفسهم على هذا الأساس.

من الغريب أن الشيخة لم تكن تعرف أن منسى يسأل نفسه هذا السؤال. فهى قد فرحت عندما رأت الفراغ هو كل ما فى داخله..

ظل منسى مغلقاً، وظل بعيداً. رغم أنه فى يدها تنقله، تقيمه وتقعده، تلقى به فى الفراش وتضعه فى ظل الباب. كل هذا والسؤال فى ذهنه، ثابت لا يهتز وهى لا تدرى.

وإذا كنا رغم كل هذا نستطيع أن نجد مكاناً للحب فى هذه القرية فإننا بلاشك سوف نجده فى قلب منسى. حب راقد. قديم. لا مخرج له. كنجمة خابية مدفونة تحت الأرض. ففى الليالى التى ينطلق فيها صوت «جاد» مغنى القرية الحزين. وهو يحيى السامر، وتكون الشيخة جالسة على صخرتها صامتة يسقط عليها وحدها ضوء القمر،

تمتلئ نفس منسي العاجزة بأشياء غريبة يتساءل: لو تخلت الشيخة عن قدرتها؟ لو استطاع أن يحبها؟ إن في عيونها وفي يديها شيئاً له ولكنه بعيد.

يتلاشى صوت جاد المغني من أذنيه. ويسقط هو في بحر السؤال. ويفقد قدرته على النظر والرؤية.

ولحسن الحظ لم يكن جاد المغني يغني كل ليلة فهو ضعيف ومريض ومصاب بالصرع. وعندما تأتيه نوبات الصرع يقع على الأرض في الزريبة التي يعمل بها عند أحد الملاك، فيأتي صاحب الزريبة ويلقي عليه صفيحة من الماء، ويتركه هناك في وسط الزريبة وقد تخشب جسده، وملأ السائل الأبيض فمه واستحالت عيونه إلى بقع من الدم الأحمر. في هذه الأوقات كانت تأتي الحيوانات فتتشممه وتتحسس جسده في حب وقلق ثم ترقد إلى جواره وعيونها الواسعة الكبيرة تراقبه. يظل كذلك حتى يسقط المساء على الزريبة التي لا سقف لها وتمتلئ سماؤها بالنجوم والقمر، وتبدأ نسمات الليل الباردة تداعب الجسد الميت القاسي فيلين ويبدأ في الحركة.

وعندما تشعر الحيوانات به وقد بدأ يتحرك تبدأ فى الصراخ وكأنها تحتفل باستقبال حبيبها مرة أخرى إلى الحياة. وعقب هذه النوبات يكون صوت «جاد» حزيناً غاية الحزن، رقيقاً وعذباً إلى درجة لا تصدق. فيخرج من الزريبة - بعد أن يطعم أصدقاءه الحيوانات - ويسير فى طرقات القرية مطأطئ الرأس وجلبابه مبلول يرتجف من البرد ومن الرغبة فى الغناء، حتى يصل إلى مكان السامر فيبدأ فى الغناء، ويلتف حوله الأهالى وتجلس الشيخة على صخرتها. وينفطر قلب منسى الحزين وهو جالس فى مكانه خلف الباب.

فى هذه الأيام بدأت نوبات الصرع تصيب جاد كثيراً، بدأت تأتيه حتى فى اليوم مرتين وجسده يزداد هزالاً ووجهه الرقيق يصبح كأنه قناع من الشمع. رأته الشيخة وهو يأتى كل ليلة إلى السامر مخترقاً طرقات القرية كالشبح وقدماه لا تقويان على حمله فأرسلت تستدعيه وقالت:

- أنا راح أعالجك فى «الأودة» من الليلة الجاية.

كان جاد وكل القرية ينتظرون هذه الجملة من الشيخة منذ زمن طويل فهم يعرفون أن كل من يدخل «الأودة» عند الشيخة مصاباً بأى مرض فإنه يخرج صحيحاً قوياً وينضم مرة أخرى إلى حياة القرية.

غير أن الشيخة ظلت تؤجل هذا الاستدعاء لأنها كانت سعيدة بسماع أخبار العلاقة القائمة بين جاد والحيوانات. كان فيها شيء طريف مسل. ولم تكن ترى أن فى مرضه خطورة على حياته. ولكنها عندما رأت أن الحالة قد بلغت هذا الحد قررت أن تبدأ فى العلاج.

فرحت القرية لجاد.. وأحس منسى ببعض القلق، فقد شعر أن فى مرض هذا المغنى شيئاً غريباً وقوياً يستطيع أن يقف فى وجه قدرة الشيخة. وعندما انفض السامر ودخلت الشيخة إلى الفراش مع منسى قال لها:

— مرض جاد كبير، وشيء مش سهل..

فضحكت الشيخة، وجذبته إليها فسكت..

فى الليلة التالية بدأ العلاج. كان جاد يودع حيواناته قبل الغروب ويتحامل على نفسه حتي بيت الشيخة وقد هد

جسده المرض، وبدت على وجهه آثار الصرع، فيدلف من الباب الكبير، حيث يجد الشيخة في انتظاره فى «الأودة» المغلقة وقد ارتدت ثوباً أبيض طويلاً وغطت وجهها بقطعة من التل الأبيض لتمسكه من يده وتغلق خلفهما الباب.

أما منسى فيظل جالساً أمام الحجرة مستنداً على عصا صغيرة، وعيونه مسمرة على الباب الذى يختفى خلفه جاد والشيخة. دقات قلبه عالية وفي عيونه رجاء حقيقى. وبعد ساعة أو ساعتين تخرج الشيخة مبتسمة قوية فيقوم منسى لها ولكنها تعبره إلى صخرتها حيث تجلس. وبعد لحظات يخرج جاد متعباً هزيلاً ويشق طريقه إلى الزريبة حيث ينام..

استمر العلاج ليالى طويلة انقطع فيها سامر القرية. وأصبح الأهالى جميعاً يلزمون بيوتهم. كانوا يفتحون الأبواب فتحة صغيرة وهم يراقبون جاد يسير فى طرقات القرية فى طريقه إلى الزريبة بعد انتهاء العلاج ثم يغلقون أبوابهم ويشعلون أنوارهم الخافتة وينامون وهم حزانى صامتون. فقد كان جسد مغنيهم يزداد هزالاً يوماً بعد

يوم ولم يجد العلاج شيئاً حتى الآن.

وفى الليلة الثانية عشرة بعد أن دخل جاد والشيخة إلى «الأودة» بقى منسى على الباب في نفس مكانه غير أنه فى هذه الليلة سمع أصواتاً غريبة تنبعث من داخل الحجرة. أصوات لم يسمعها من قبل. وسمع أقداماً تجرى وحركات غريبة وصوتاً عالياً لكنه مكتوم، بعد فترة بدت له طويلة، انفجر الباب وخرج منه جاد مندفعاً يجرى وقد تناثر شعره وغطت ملامح وجهه الهادئ قسمات الجنون. للحظات بقى منسى مذهولاً لا يدرى ماذا يفعل وهو يراقب جاد المغنى يجرى فى الساحة الرملية، أمام البيت، رافعاً يديه إلى أعلى وكأنهما قطعتان رفيعتان، من الخشب وصوته يدوي فى القرية كلها:

- «أودة» الشيخة فاضية. «أودة» الشيخة فاضية.

انتظر منسى فى قلق وخوف أن تخرج الشيخة من الحجرة ولكنها لم تخرج.

تسمرت قدماه فى الأرض وانطلقت من فمه جملة غريبة:

- أعمل ايه.. أعمل ايه؟.

وكأنه مجنون تائه.. ثم خرج خلف جاد يريد اللحاق به.. ولكن جاد كان يقفز فى الساحة الرملية كثور وصراخه مستمر:

- أودة الشيخة فاضية.

ويدأ منسى يحاول الإمساك به ولكنه هرب في حوارى القرية، وصياحه لا ينقطع والأبواب من حوله تنفتح وتغلق.. زلزال أصاب القرية..

كانت الدنيا ظلاماً. وصمت القرية ثقيل لا يقطعه سوى الصياح، وجاد ومنسى يجريان في الحوارى المظلمة. وفى آخر حارة من حوارى القرية أدرك منسى جاد ووقف الاثنان لحظة أمام بعضهما ثم رفع منسى العصا التى كانت فى يده وضرب جاد على رأسه. فسقط جاد المغنى على الأرض. وانحنى منسى ليمسك يده..

ولكن جاد المغنى كان قد مات..

- ٣ -

جرت الحركات في الحجرة بسرعة كبيرة. الشيخة تذكر جميع اللحظات والحركات. لحظة واحدة فقط كانت خافية، وتبدو وكأنها مركز كل اللحظات، تبدو وكأنها كانت كل اللحظات.

يدها كانت على رأس جاد المغنى، عيونه كانت مسبلة. أطرافه هادئة. كان ممدداً أمامها. فجأة ارتعشت يدها، وانتفض جاد. حاولت أن تنظر إليه. أن توقف حركته بنظراتها. ولكنه كان ينظر إليها بنفس القوة. انكسر شيء. وأحست فجأة أن الأوان قد فات.

جسد جاد ينتفض بعد أن وقف في وسط الحجرة.. يشير إلى فمه، كأنه يريد أن يصرخ، صوته لا ينطلق. قوة كبيرة تملأ جسد المغنى. راح ينتفض، وصوته المكتوم يشبه صوت الأمواج.

بقدمه كسر اللمبة، قلب المنضدة التي تضع الشيخة

عليها أشياءها. حاولت أن تمسك به، أن تسنده إليها، ولكن شيئاً ما قد كسر. والأوان كان قد فات.

كسر «جاد» الباب وخرج من الحجرة يصرخ..

- أودة الشيخة فاضية.

وقد عادت إلى صوته كل قدرته على الصراخ، لطمت هذه الكلمات الشيخة. كأنها أحجار. لماذا اختار هذه الكلمات بالذات؟ كلمات لم يقلها أحد من قبل في القرية. هي لم تقل إن في حجرتها شيئاً.. هم الذين كانوا يتصورون أن في حجرتها أشياء. هي لم تقل.

- أودة الشيخة فاضية.

«فاضية» من ماذا؟ لماذا ينطلق منسى وراءه. القرية صامتة. كل الناس صامتون ماذا يحدث؟ الزلزال. شيء لا تفهمه الشيخة الشيخة. دوامة. دوامة واضطراب. خوف. وفراغ.. الشيخة.

عاد منسى بعد لحظات. كانت الشيخة لاتزال في غرفتها المظلمة. لم يكن في نفسها أي حماس للحركة. وقف منسى على الباب. ناداها. لم ترد. حاولت. لكنها لم

تستطع، ناداها مرة أخرى.. لا يجرؤ على الدخول وهي لاترد.

قال منسى:

- جاد انقتل. أنا قتلته.

ولمعت في نفس الشيخة نقطة حماس وفرح، لكنها خبت. مرة أخرى لم ترد. منسى لا يجرؤ على الدخول. هى لا ترد، الباب المكسور بينهمـا، والظلام. فى القرية بدأت تسرى همهمة.

- جاد انقتل، أنا قتلته.

ودمدمة الناس في القرية تعلو وتهبط.. الليل يتقدم والموقف لا ينفرج.

أحس منسى بالضيق والعجز. أحس أنه يريد أن يسمع صوت جاد المغنى فى السامر، أن يراقب الشيخة وهى جالسة على الصخرة. كل شيء مستحيل الآن، حتي عبور الباب المكسور إلى الحجرة حيث الشيخة. إنه فى موقف جديد وليس هناك طريقة للتصرف. العجز يسيطر على جسده ويشل قدميه. الحب الذى فى قلبه للشيخة

يخنقه وتلك الدمدمة التي تتصاعد من بيوت القرية تكاد تذهب بعقله. لا يزال الظلام طويلاً أمامه. ساعات وساعات حتى يأتي الفجر. الفجر هو الشيء الوحيد الذى لابد أن يحدث. لكن لا أحد يعرف متى.

فى الفجر هبطت من التلال الرملية التي تحيط القرية جماعة من العساكر. يرتدون ثياباً سوداء. ويعرفون طريقهم. خطوات وخطوات. حركات منتظمة لها هدف. فى طرقات القرية يطل الناس من النوافذ والأبواب وثلة العساكر تتقدم. تسير نحو منتصف القرية. أمام بيت الشيخة وقفوا. بقعة سوداء كبيرة وغريبة فى وسط الرمال الصفراء. وتقدم كبيرهم نحو باب بيت الشيخة وأمسك منسى من يده وخرج به.

جسد منسى هزيل غريب بين أجسادهم الكبيرة السوداء. أطلت الشيخة من النافذة لحظة واختفت.. رفع منسى رأسه لها. رآها ثم اختفت.

عادت جماعة العساكر تسير فى نفس الطريق الذى قدمت منه. خطوات وخطوات فى وسط شوارع القرية

الضـيـقـة. ومتسى بينهم. بلا حـديث. سكون وخطوات منتظمة.

الناس تطل من النوافـذ والأبواب. جـمـاعـة العـسـكر خرجت من القرية لونها يضيع وسط الرمال الصفراء.

الآن كل شيء انتهى. لكن الناس لا تخرج من بيوتها. لا أحد يستطيع أن يعلن النهاية. الجميع يراقبونها فى قلوبهم لكن أحدهم لا ينطق. صرخة جاد المغنى فى وسط القرية، القتيل، والعساكر والرحيل. من يعلن بعد هذا النهاية.

فى صباح هذا اليوم والشمس تقترب من ثلث السماء رأى أهل القرية الشيخة تجلس على صخرتها. لم يقترب منها أحد. لم تنظر هى إلى أحد.

ليس هناك من يجرؤ على دفع الشجرة النخرة فتقع. ليس هناك من يجرؤ على الاستناد إلى الحائط الهرم فيسقط.

كل شىء يجب أن يبلغ نهايته بنفسه. حتى الشيخة. يجب أن تمر بكل عذاب النهاية.

انتهى اليوم الأول بلا أحداث. والثانى أيضاً بلا أحداث. ودخلنا فى الأسبوع الثانى. وأهل القرية يزرعون أرضهم ويركبون قواربهم القديمة. والسامر فى القرية لا ينعقد. والرياح تهب فى الليل على قبر جاد وتهيل عليه مزيداً من الرمال.

كان وجوده قائماً. كل من ينظر إلى حيوان، إلى عيون البقر، أو إلى سماحة فم الخروف يتذكر جاد. كل من يسمع صوت أمواج أو رياح يتذكر جاد. والشيخة أكثر منهم جميعاً تراه أمام عيونها وتذكره. تذكر اللمبة المكسورة والباب المحطم. وصورة بعيدة لسامر صغير كان يعقد فى القرية.

حتى منسى كانوا جميعاً يذكرونه. حتى منسى ترك فى الحياة أثراً. ترك على أجساد النساء علامات من عيونه التى كان يطلقها عليهم. شىء غامض فى نفوسهن يشبه الحسرة. فى نفوس الرجال ترك ذكريات. صورته وهو على تلة الرمل. صورته وهو يتزوج الشيخة فى الفرح الغريب الصامت.

الشيخة كانت تذكر فرحتها بالتحدي الذى أطلقه وجوده فى نفسها قبل الزواج. تذكر الدخلة. الفراغ الذى تصورت أنه كل ما يملكه.

عندما كانت تستعيد في ذهنها - الذي أجهدته الأحداث الجديدة - ذكرى ليلة القتل كانت تضطرب وتسأل نفسها: لماذا قتل منسي جاد، إن هناك شيئاً ما لم تكن تفهمه. شيئاً ما أساءت تقديره. وبدأ إحساس صغير بالندم يولد فى نفسها.

شغلها هذا الندم عن مراقبة النهاية بوعى.. استسلمت للشعور المريح الذى يغلف به الندم الواقع فيجعله محتملاً.

الروح الجديدة التي تولد فى نفس الشيخة بعد هذا الندم كانت خطوة جديدة فى الطريق إلى النهاية. عرفت أن أهل القرية لم يتمردوا عليها. هي وحدها.. سوف تسير وحدها إلى النهاية. الندم على منسى، وعلى الشىء الذى فات، وعلى الخيط الذى لم تلتقطه، كان بداية النهاية فى نفسها، والشىء الوحيد الذى سيرافقها. الاعتراف المريح الذى يرخى التوتر ويقلل من معاناة النزع الأخير..

مر أسبوع آخر: والناس كما هم. ينظرون إلى الشيخة من بعيد، ويمارسون أعمالهم فى ثقل وهى على صخرتها من الصباح حتى المساء.

وفى صباح يوم من الأيام وجد أهل القرية أن بيت الشيخة مغلق.

قال قائل إنه رآها فى الفجر تسير ناحية محطة القطار التى تبعد مسيرة ساعة من القرية.

وسكت الأهالى.

وفى العصر بعد انتهاء العمل صعدوا جميعاً إلى تلال الرمل التى تحيط القرية ينتظرون عودة الشيخة ويتطلعون إلى الأفق. قرب الغروب شاهدوا قطار العصر العجوز يدخل المحطة كأنه جيش مهزوم. نزلت منه الشيخة وحدها وراقبها الناس من بعيد.. بقعة سوداء تكبر أمام عيونهم فى بطء فى طريقها إلى القرية كانت تبدو كأنها فيل عجوز.

وعندما اقتربت من القرية نزل الناس من فوق تلال الرمل وأخذوا يسيرون حولها:

سأل أحدهم:

- كنتي فين؟.

كانت عيونها تائهة. وجهها شاحباً. غريبة، صغيرة، ضائعة، خرج من فمها صوت غريب يردد كلمات متقطعة:

- عند منسي. السجن. عساكر. سور. حديد. أرض. بلاط. مش أنا. راح. خلاص. النور. بيت. كله. خلاص. أنا مراتك.

والناس يسيرون حولها، يسمعون كلماتها، إلى أن وصلت إلى باب البيت. استندت عليه، نظرت إليهم. قالت:

- خلاص.

وأغلقت الباب.

بعد أربعة أيام كانت الشيخة قد ماتت.

البشكير الملون

اندفع سيد في طريق الشرق، حيث الصحراء وبعدها المقابر. طريق لم يقطعه أبداً من قبل.

لا يرى سوى الغبار في عينيه، وأشباح الرجال وخطوط الجدران، وأسقف البيوت، تسلم نفسها لفراغ مصنوع من حرارة الشمس، والأطلال وأكوام الخرائب.

يقطع الأمتار الأخيرة قبل أن يخرج من المدينة، حاملاً طفله «وحيد»، الذى مات منذ ساعات، ملفوفاً فى بشكير ملون.

أحمر العينين، منكوش الشعر، متهدل العقل والملامح، اقترض أولاً: ثلاثة جنيهات، لزيارة الطبيب الكبير ثم ثلاثة للدواء، وبحث عن ثلاثة أخرى، يوم أن عاد من عمله، ليرى وحيد فى حجر أمه أزرق، متهدل الرأس، مغلق العينين.

عندما لم يجد، ذهب إلى «المستوصف» القريب، ودفع آخر جنيه ونصف. بعد الزيارة، تركه مع أمه فى الغرفة،

وذهب بعيداً يبحث عن خمسة جنيهات للدواء، كان الوقت متأخراً.

عاد بدونها، وأمضى الليلة يلهث مع «وحيد»، ويتحاشى عيون أمه التى تحولت إلى مخالب.

راقب عيونه المغلقة، وعيونها، يده المتدلية، ويدها القابضة على الهواء، المصباح ظل مضاء حتى الفجر، والشبشب ذو الكعب العالى مقلوب فى ركن الغرفة، قدماه متورمتان، محملتان بتراب وطين الطريق، فوق جلد جاف ميت، أظافر قدميه المعقوفة كان آخر ما رأى. أغلق التعب عينيه لحظات، فنام. قام مع أول لسعة لشعاع الشمس، خرج دون أن ينطق، رجع فى العاشرة، كان وحيد قد مات وأمه تقفز كدجاجة ذبيح، تزحف على بطنها فوق أرض الغرفة حولها أشباح نساء كثيرات.

خبط رأسه فى الطوب الأحمر، فى حافة الباب ثلاث مرات، أسلمته امرأة سمينة ابنه «وحيد» ملفوفاً فى بشكير ملون.

أمسكت أم وحيد ببنطلونه، وهى تتمرغ على حصير

الغرفة.. ولكنه اندفع يقطع الشارع فى اتجاه الشرق، حيث الصحراء وبعدها المقابر طريق لم يقطعه أبداً من قبل.

(أول شىء رطب لامسه: كان يد الغفير، التى امتدت لكى تصافحه. خرج له من حوش مقبرة ظليل. قال: البقية فى حياتك، وقرأ آيات من القرآن، ثم قال: «ثلاثة جنيهات فقط وننتهى بسرعة، ندفنه هنا، مع الأكابر، وعظماء الرجال». سكت سيد، ولم يرد).

(قال الغفير: اثنين جنيه، وهذا آخر كلام، كل الناس عيونها مفتوحة، حتى الأموات!).

(ظل سيد صامتاً يحدق فيه، وأقسم أنه لا يملك نقوداً).

(استدار الغفير غاضباً، دمدم بكلمات لعلها سباب).

(اندفع سيد قائلاً: تعالى.. تعالى! خذ خذ!).

(رجع الغفير، ومد يده، وضع سيد البشكير الملون فوق ذراعى الغفير، كأنه سيبحث فى جيبه عن نقود، لكنه انطلق جارياً قافزاً تحت الشمس، فوق الأطلال وأكوام الخرائب، والزبالة، تاركاً الفقير مشدوهاً، يحمل فوق ذراعيه الممدوتين بشكيره الملون).

حكاية كل يوم

لم تدر كيف نامت ليلتها، ولا تدرى كيف استيقظت. كوب الشاى الذى صنعته لنفسها كان أول شيء ساخن وهي تشعر به فى أطرافها التى كانت فى حالة خدر يشبه الموت.

جالسة إلى منضدة المطبخ مرتدية قميص نومها القديم، لم تغسل وجهها بعد، تحدق فى الهواء الكثيف الذى يملأ مطبخها. أكواب شاى وقهوة. وأطباق بها بقايا طعام من آثار الليلة الماضية. وأوراق ممزقة وقشر برتقال ملقى حول صفيحة الزبالة.

هى ليست خائفة ولكنها مضطربة. عمارة سقطت فوقها. تسير بأقدام عارية فوق حجارة وأنقاض. قال لها: «لا أستطيع أن أتنفس. إننى معك أختنق.. أموت» لم تدر ساعتها ماذا تقول. أذهلها منظره الشاحب المسكين، وجهه الذى تعرفه جيداً، كأنها تراه لأول مرة. قالت: «أنا

أيضاً أختنق أموت.. معك».

طفولتها لم ولن تنتهي أبداً. عنادها ضوء دوار، يضيء في رأسها ثم ينطفئ.

تراكمت لحظات ثقيلة منذ غروب الأمس. كان يستعد للخروج ويريدها أن تخرج معه. ارتدى ملابسه وظل جالساً أمام التليفزيون يراقب البرامج التعليمية. ظلت هي في غرفتها تراقب وجهها في المرآة. وجدته وجها ضائعاً. وكأن ليس به ملامح. يسألها: من هي؟ لماذا هذا الرجل الذي يختنق جالساً في الصالة.

جاء صوته عاليا معدنيا: «ألن تنتهي أبداً»..

لم ترد..

وقف على باب الغرفة، رأى أنها لم ترتد ملابسها. رأى أنها لا تفعل أي شيء.

قال:

لم أعد أطيقك. لم أعد أطيق سخافتك، وجنونك..

كل يوم تزداد كلماته غلظة وغرابة. يكرر الجنون والسخافة والغباء بسهولة. لم تعد تستطيع أن تنسى

الكلمات. تتراكم الكلمات فوق بعضها فى مكان ما بين القلب والأمعاء. جنين ميت.

كيف تخرج معه تزور نفس الأصدقاء، أصدقائهم زوجاتهم لسن صديقات لها. تكره المساء والسهرة، تكره الكلمات التى يكررها كل مرة وهم فى طريقهم إلى الزيارة. يتقرب إليها فى افتعال، يحاول أن يضع على وجهه ابتسامة لزجة، يلامس شعرها ووجهها فى نفاق سخيف. جبان. صمته المحبط المهين وهما عائدان إلى البيت، هل يصدق حقا أنها غبية بلهاء؟!.

خلال السهرات، تشغل نفسها دائماً بمراقبة الافتعال والزيف الذى يصاحب سلوكه وسلوكهم. تسأل نفسها دائماً كيف يتصرف هؤلاء الرجال المتحذلقون الذين يتكلمون بصوت عال. فى السياسة والفن، عندما تغلق عليهم مع زوجاتهم الأبواب، عندما يرتدون البيجامة أو الجلباب، ويستلقون أمام التليفزيون فى بلادة وعفن. كيف يسلكون فى غرف النوم، وفى مطابخهم، أو عندما يستجدون الجنس كخراف هائجة منتفخة. أو ينعرون فى

لحظات ضعفهم فيكشفون عن غرائز مشبوهة وأرواح ميتة. وتشعر فى كل ليلة أنها تنسج دائماً نسيجاً مكررا من نفس الخيوط. نسيجاً أوهى من نسيج العنكبوت.

حطم ذلك الأحمق كل شيء بالكلمات. ركام من الألفاظ الميتة. ركام، ركام. لو أنه ترك لها طاقة أمل واحدة. يريد أن يسوى بها الأرض. هو أيضاً صار منكفئاً على بطنه، بلا أمل أو طموح. ماذا يريد منها الآن سوى طعامها المكرر، والبلولة التى يخلفها بين فخذيها. يطل برأسه التى تشبه رأس السلحفاة، من تحت حراشف صلبة ميتة، ثم ما يلبث أن يدخل رأسه فيتحول إلى جماد أغبر كريه..

سمعته يتحرك فى الحمام. أدارت بصرها ناحية النافذة أسرعت فى ارتشاف كوب الشاى، سمعت سعاله الصباحى، وشمت رائحة سيجارته الأولى التي يشربها فى الحمام، أحست بغثيان ورغبة فى القئ. مصيبة لو أنها حامل. حضوره فى البيت ثقيل، يشل حركتها ويقيدها إلى الأرض.

لم يخرج بالأمس. خلع ملابسه وألقى بها على

السرير. ظل يروح ويجئ في البيت، يسكت ربع ساعة باحثا عن كلمات جديدة أسخف من سابقتها، لزمت هي غرفتها، بين المرآة والسرير ترتق فستانا قديما، وتسمع من الراديو أغاني حب حمقاء.

سمعته يزحف وراءها داخلا إلى المطبخ. توقعت يده على كتفها. وتخشب جسدها كله، أخذ يكرر اعتذاره المكرر المنهوك.

ليس لنا مكان غير هذا، لابد أن نتعلم كيف نعيش. ماذا حدث؟ لماذا لا تردين؟!.

رفعت رأسها إليه، رأت وجهه هو الآخر ضائعا بلا ملامح، استند على المنضدة مقربا وجهه إليها، عرفت أنها سوف تخطو خطوات جديدة على أرض اللامبالاة.

ولا رجوع

قلت فى قلبى: أنت لا تعرفين شيئاً! هل تعرفين أن اليوم عيد ميلادى؟.

أنا أنتظر الترام، وأنتظر فتاتى «إنصاف» على محطة «كامب شيراز الصغرى»، «البحر ورائى» وسماء خريف الأسكندرية فى الضحى غامضة مليئة بأشكال من السحب. ليس حولى هنا على المحطة زحام، مقعد حجرى شاغر، ومقعد آخر تشغله امرأة كبيرة تضع بين ساقيها كيساً من البلاستيك الأسود تطل منه خضروات ذابلة، وذيل سمكة كبيرة مجمدة.

المرأة ترتدى ملابس سوداء ونظارة طبية سميكة وعلى وجهها بؤس داكن عميق.

صرخ قلبى صرخة عاتية عندما امتلأ هواء المحطة وقضبان الترام الممتدة بتلك الطيور السوداء الصغيرة الزاعقة البشعة.

قلت فى نفسى:

إنصاف.. لن تأتى، إنها تتركنى لكى أقع فى بئر بلا قرار.

وما لبثت تلك الطيور أن انصرفت عنى منذرة بعودة مؤكدة.

داعب قلقى صوت الترام المتأرجح القادم من بعيد. وتمنيت فى قلبى أن أرى قوام «إنصاف» الشهى يهبط من العربة المخصصة للسيدات. وتمد يدها لى مصافحة.

قال لى عقلى: لو أضاعت فوق درج الترام، آخذها فى صدرى بعيداً، أحملها إلى بلدنا البعيد خلف بيتنا عند الجميزة الكبيرة.

كان من الضرورى أن أنتظر الترام التالى، فمن هذا الترام لم ينزل أحد سوى مجموعة من الأطفال وعجوز أجنبى يتوكأ على عصاه. وغادرتنى حتى المرأة الكبيرة السوداء تحمل معها سمكتها الميتة.

فى الترام التالى كان قدرى ينتظرنى، وقد جاء سريعا. نزلت حبيبتى «إنصاف» تحمل على صدرها كتبها

المدرسية. كان في وجهها شحوب وقلق. خلفها نزلت صديقتها «منيرة» وقفت واحدة منهما على يميني، والأخرى على يساري، سمعت صوت «إنصاف» خافتا يقول:

- تأخرت. آسفة، أنا ومنيرة سنسمع درس الظهر في الجامع في ڤكتوريا. يمكنك أن تأتي لو أردت.

لم أعرف كيف أرد. حضور منيرة كان وزنه ثقيلاً مرهقا. سقطت في حلقي ذكرى عيد ميلادي. وحلمي بيدها. وهواء البحر البعيد.

وقلت من حلقي الجاف.

- إن شاء الله. نلتقي في نفس الموعد هنا غدا.

عيناها والجبل

كانت فى طريقها إلى البيت قبل الغروب. الغرفة التي تسكن فيها تقع فى نهاية شارع يرتفع مع أطراف المدينة وينتهى إلى الصحراء. بعد أن نزلت من الأتوبيس المزدحم أخذت تخترق الشوارع المليئة بالحياة، والأزقة التي يملؤها صراخ الأطفال قبل أن يحبسهم الليل.

تدق الأرض بحذائها الرخيص المترب ذى الكعب الألومنيوم. فى رأسها إرهاق يوم طويل قضته فى المستشفى بين المرضى والزوار. عيناها تسقطان فى لا مبالاة على الدكاكين القديمة.

البضائع البسيطة المعلقة فى كل مدخل. تراقب البيع والنسوة القابعات على أبواب المنازل تسرع خطواتها وكأنها ليست من هؤلاء الناس. هى لا تريد أن تكون منهم، خلعت ملابسها فى المستشفى وقفت أمام المرآة، كانت ملابس الخروج «مكرمشة» من وضعها المهمل فى

الدولاب الصغير، مرت بيدها على «البلوزة» . شدت أطراف «الجونلة» التقت عيناها بعينيها المنعكستين فى المرآة. رأت فى العينين الزقاق والغرفة الصغيرة والسطوح. وألوان عشرات البلوزات والفساتين التي تحبها. حاولت أن تضع بعض التواليت. ولكنها فى غضب قررت أن تترك كل شىء لتفعله فى المنزل بعد أن تعود، الليلة سوف تخرج فى المساء. لابد أن تخرج الليلة فى المساء.

اللحظات الطويلة التي تأخذها رحلتها فى الذهاب إلى المستشفى فى الصباح، والعودة منها فى المساء، كانت هى أصعب اللحظات فى حياتها. فهى فى تلك اللحظات تكون مستغرقة فى أفكارها التي لا تتعدى طموحا حارقا يدفع الدم إلى رأسها الصغير، تدور عيناها تراقب الملابس، والعربات وفتارين المحلات. تتوقف أمام صور ثابتة كأنها الفانوس السحرى. تظل تصاحبها كأنها مربوطة أمامها بحبال غير مرئية.

قبل أن تدلف إلى الزقاق الأخير الذى يقودها إلى

البيت وينتهى باتساع الصحراء، كانت تقول لنفسها سوف تعود اليوم إلى رجل الأمس. سوف تضحك، وتنفخ فى وجهه دخان السيجارة الذى لا تتقن ابتلاعه.. تطلب منه أن يضع فى حقيبتها جنيها أكثر.. أو اثنين. أنه يلقى بالنقود هنا وهناك. هو لن يرفض فهو ظريف. قد أوصلها أمس بالعربة. طلب منها أن تراه كثيراً. من أجل هذا سوف تلبس الفستان الأزرق.

عندما انحرفت لتدخل باب البيت خرج البقال الشرس الذى يراقبها بعينين جائعتين، رفع الحاجز الخشبى ووقف قريباً منها:

- إنتى فين.. ضربنا لك تليفون فى المستشفى قالوا خرجت.. أبوكى تعبان بيموت.. كان مالى السطح زعيق ومش طايق حد.. شوفيه ماله.

على السلم الضيق المظلم الذى قطعته كأنها قطة خائفة تساقطت الصور وغرقت فى ظلام بير السلم أحست - وتنفسها يعلو - بشىء غريب يملأ صدرها. تذكرت المرضى الذين قضت يومها بينهم وعادت إلى

ذهنها صور وجوههم المتألمة.

عادت إلى ذهنها بوضوح صورة عينيها هي، اللتين تحدق فيهما ولا تراهما. قبل أن تفتح باب الغرفة الخشبي رأت جسدها عجوزاً ممدداً في سرير وحيد في صحراء.

أبوها قابع في السرير الكبير. والحجرة كلها منكوشة، كان يبدو غاضباً منكوش شعر الرأس، على وجهه تعبير قاس ومتألم. اقتربت منه في هدوء الممرضة المحترفة.

لكنه كان ينفر من يديها اللتين امتدتا تحاولان أن تريحه. أخذ يشير لها إلى مواضع كثيرة في جسده، ويقول لها.. هنا. هنا. ويتلوى من الألم.

عجوز مريض بالسكر، والضغط، هي تحضر له الأدوية لكنه بين آن وآخر كان يفاجئها بهذه النوبات العصبية التي لا تستطيع أن تواجهها إلا بأن تأخذه إلى طبيب من أطباء المستشفى في عيادته الخاصة، حيث يكشف عليه ويقول له كلمات ويكتب له دواء جديداً، تعرف هي ويعرف الطبيب أنه ليس أكثر من مقو عام.

لمحت في المرآة عينيها. ولمحت من خلف طرف الستارة فستانها الأزرق. امتد بصرها من النافذة إلى الصحراء. قامت تلف جسد أبيها بالبالطو الجبردين القديم. ولمحت في عينيه سعادة شقية كأنه خارج إلى نزهة. سندت جسده النحيل وخرجت إلى السلم، عبر الزقاق والحارة رأت عيون الناس تحدق فيهما. أحست أنهم يعرفون كل شيء. يقتربون منها ويحتكون بها في زحامهم الذي لا يهدأ. تقدم أحدهم ليساعدها في العثور على تاكسي للرجل العجوز المريض.

ظل صامتا طوال الطريق ينظر من زجاج العربة، ويبتعد عنها في الطرف الآخر. جلسا معا ينتظران الطبيب. وبعد أن استقبلهم الطبيب بتلك الابتسامة المجاملة للزوار الذين لا يدفعون، قام وكشف على الرجل وربت عليه، وقال إنه «زى البمب» ولا يحتاج إلا إلى هذا الدواء، وجلس يكتب الروشتة.

انفجر الرجل العجوز مشيرا إلى ابنته..

- هي دي السبب.. هي السبب يا دكتور.. ربياني زي

الكلب، ودايرة علي حل شعرها .. كل يوم ترجع وش الصبح هي السبب حتموتني ناقص عمر.

وقف الطبيب حائراً وصوت الرجل يعلو. وهي تحاول أن تسحبه خارج الغرفة وجسدها ينتفض من الخجل والغضب والانفعال.

وعندما وقفا أمام العمارة التي فيها العيادة ينتظران تاكسي آخر، كانت المدينة قد اشتعلت بالأنوار والألوان.

صباح الجمعة

عندما دخل فكرى على والدته يجرى مرتعباً، تركت كل شئ فى يدها يسقط على الأرض واحتوته بين ذراعيها. قفز إلى أعلى يريد أن يخفى رأسه فى صدرها، فابتعدت به عن البوتاجاز المشتعل.

لم لا يتركها زوجها دقيقة واحدة بلا إزعاج. ألا يستطيع وهو الرجل الكبير أن يبقى الولد معه دقيقة واحدة. أعادت وضع الولد على الأرض فى عصبية، وتمنت لو خرجت من باب هذه الشقة بسرعة ولم تعد.

كان المطبخ من حولهما مزدحماً، وقميص النوم الذى لم تخلعه حتى الآن يضايقها. كانت تفكر فى شعرها الذى يجب أن تغسله الليلة مهما كانت الظروف. تعلق الولد فى ساقها وألصق وجهه الساخن فيها. ولم يكن لديها أى «خلق» له.

ومن المؤكد أن زوجها الآن يحرك رجليه، يمط رقبته، ويقرأ الجورنال، حدقت في حبات الأرز البيضاء، واستمعت إلى تنفس الولد العالى، إنه يريد أن ينام بعد أن حرقه البكاء.

كان مستسلماً غريباً وهى تضعه فى السرير. كأنها لا تعرفه. لامست وجهه. ومددت جسده تتحسسه وتغطيه، واتجهت إلى زوجها الذى كان يسعل فى الصالون.

استندت إلى مقعد مجاور للذى يجلس عليه. وسألت الله أن يطرد عنها تلك المشاعر. أحس بها فسأل: نام؟.

هزت رأسها. فعاد يقرأ الجورنال.

أصوات الشارع تملأ الشقة. وفراندات العمارة المقابلة مفتوحة ولا تخلو من الحركة. ضوء منتصف النهار ثقيل فى عينيها ورأسها. امتلأت أذناها بأصوات صباح يوم الجمعة المميزة تملأ الشارع والمنطقة. والميكروفونات تستعد لإذاعة الصلاة. تمنت أن يرفع لها وجهه، فقد كانت وحيدة وخرق أذنيها صياح الأولاد يلعبون الكورة فى الشارع.

عادت إلى حبات الأرز البيضاء تحركها فى الصينية. وتملأ أصابعها من دقيقها الأبيض. كيف لم يعد فى حياتها شئ. شقتها الصغيرة الضيقة. وعملها الذى تخرج منه كل يوم فى الثالثة وفى رأسها - فقط - صداع. وجه طفلها السمين وعيناه. والشوارع - كل يوم - مزدحمة وموحشة. ووجه زوجها يزداد بعداء، وتقل رغبتها فى معرفته إنها لا تتذكر متى كانت البداية.. وكيف.

ستضع الأرز على النار، وتغسل وجهها، وتغير هذا القميص الذى تكرهه كما تكره كل شئ. لو كانت فى عملها الآن لكانت تشرب كوب الشاى الثانى وربما دخل صالح- زميلها - وأخذ يحاسب بائع الجرائد العجوز ويجعله يروى قصصا مسلية وطريفة.

زوجها يفتح الراديو. ويصفر بفمه لحناً تكرهه. هل يمكن أن يفكر زوجها فى الطلاق. والولد! أسرعت إلى الحمام خلعت ملابسها وأحست فى قرارة نفسها بنزق مخيف ومخجل. سوف تغسل شعرها فى الليل وتستحم.

كم تريد أن تنام الليلة نوماً هادئاً.

أمام المرآة تذكرت أن عليها اليوم أن تغسل قمصان زوجها ليس الآن ولكن فيما بعد. المهم أن تكون فترة الغداء هادئة فهي تشعر بدوار. لا يمكن أن يكون قد غير رأيه في مسألة السينما. الفيلم الأوروبي الذي قال عنه أمس. سوت شعرها بيديها في عصبية وغادرت غرفة النوم إلى الصالون.

عندما حان وقت الغداء كانت منهمكة وعليها أن توقظ فكري وأن تحاول إطعامه. وجلست لتأكل. فتح زوجها الراديو. كان يريد أن يسمع الأخبار. الطعام ساخن وهو يأكل بسرعة. لكن ليس له في فمها مذاق. ألا يستطيع أن يأكل ببطء. يرتدي ملابسه، ويسمع الأخبار. ويأكل. وهي تلهث وراء ملابس فكري وأشياءه الصغيرة. سيبقى فكري مع «قرايب» زوجها حتى بعد السادسة، إنها لا تنسى شيئاً. عليها الآن أن توقظه وأن تغسل له وجهه، وأن تجعله طفلاً هادئاً حتى لا يغضب أبوه.

أغلقا باب الشقة. وعينا فكري الواسعتان لم تستيقظا

بعد. تذكرت أنها لم تأخذ جاكتته فقد يكون الجو بارداً في الليل. ولكنها غيرت رأيها ولحقت بزوجها الذي أسرع في نزول السلم.

عندما أخذ زوجها فكرى لكى يصعد به عند أقاربه، وقفت وحدها فى الشارع. الدكاكين خالية ويسود المنطقة كلها سكون؛ ما وخز الأبر.هذا الذى تشعر به؟ أحست أن روحها سقطت فى قاع حقيبة فتعلقت بذراعه ولم يقل شيئاً. لو تذكرت - فقط - متى كانت البداية. وكيف؟! تغيرت الشوارع التى كانا يسيران خلالها بسرعة. أحست إنها تتعقب عملاقاً واسع الخطوات. ليست هذه هى الأرصفة المزدحمة التى تعرفها - كل يوم - أثناء عودتها. أنها خالية ساكتة فى الساعة الثالثة من يوم جمعة. ما هذا الذى يرقد اليوم فوق الأرصفة.

حتى الزحام والصور على باب السينما لم يجعلاها ترفع عينيها عن الأرض كأنها تراقب حركة التراب. لا يجب أن تكون اليوم ثقيلة. ثقيلة هكذا. عاد يحمل التذاكر وكان يبتسم. دخلا بسرعة فقد أطفئت الأنوار وهى

تنتظره.

جلسا، وأطبق عليهما ظلام الصالة، كانت مرهقة وتشعر أن كل شئ من حولها قد صنع من الفخار. كل شئ، زوجها. والمدينة. وحتى قلبها نفسه. أحست بالعرق في جسدها كله. قالت لزوجها في صوت منخفض وبطريقة آلية إنها تنتظر أخا جديداً لفكرى وحدقت في وجهه في الظلام.

قال :

– أخت.

وأطبق على يدها وضمها نحوه.

عندما وضعت رأسها على كتفه. راحت في إغماءة قصيرة .

فوزية مهتمة بالنظافة

(خلعت فوزية فستانها الأسود مع أضواء الصباح التي بدأت تفرش صالة مكتب الصحة، وأشرفت على امرأتين تابعتين لها تغسلان المكان بالماء والصابون.

(رتبت هي حجرة الطبيب، وغيرت الهواء في حجرة شوقي البشكاتب واستقرت على عرشها أمام حجرة الكشف.

(ثلاث سنوات مرت عليها - منذ وفاة زوجها - وهي هنا في مكتب الصحة الكل في الكل، أما في الخارج فهي وابنتها اليتيمة وحيدتان كأنهما في بحر.

(شربت الشاى ثم القهوة، عندما جاء شوقى، وانطلقت ضحكاتها وأوامرها وصراخها فى الوجوه الشاحبة العليلة التى افترشت الدكك والأرض النظيفة.

مع الحركة التى تتصاعد فى المكتب كانت هى تتحسس البرايز وأرباع الجنيه التى تتقاطر فى جيب ردائها الأبيض الواسع، وأبقت فى ذهنها حساباً نظرياً. هو ناتج قسمة النقود على رؤوس المكتب الكبيرة.

كل يأخذ نصيبه، وهى تدير العمل بحرص واقتدار، كانت ملامح وجهها الأبيض العريض تتغير حسب الأحوال، حسب الوجوه التى تقابلها، لها تقدير ونظرة، ولكنها أبداً لا تخضع لاعتبارات العطف أو مسامحة الفقير. قوانين مكتب الصحة وضعها الطبيب، وأشرف على صياغتها البشكاتب وتولت هى تطبيقها، وتنفيذها على الجميع.

في منتصف النهار أزاحت من فوق قلبها غصة وهي تدفع امرأة ذاهلة إلى حجرة شوقي لتستخرج لها شهادة وفاة زوجها، على كتف المرأة كان طفل ملتاع، يصرخ ثم يهدأ هدوءاً مريباً.

انتقلت إلى غرفة التطعيم، وأشرفت على توزيع الحبوب، وعادت بسرعة إلى الشهادات المرضية، جهزت الحاجيات المتنوعة التي طلبها الطبيب من الجمعية التعاونية المجاورة وتداولت مع شوقي في شؤون سرية متعلقة بمخزن الأدوية.

بلغت العصر وهي مجهدة، فتحت الزرار العلوي للرداء الأبيض وجلست جوار الشباك، في حجرة شوقي، تفحص أوراق النقد القديمة التي تجمعت في الجيب الكبير، لوت ذراعه وهي تدفع عن نفسها هزاره الثقيل.

أخذ الطبيب ما جهزته فوزية له وانصرف بعربته وتلكأ شوقى يريد أن يصحبها فى الطريق ولكنها صرفته، دخلت فى فستانها الأسود وشيعتها المرأتان التابعتان بالدعاء لها.

فى الحمام ذى الضوء القليل بكت ابنة فوزية اليتيمة وأمها تدعك لها جسدها الأبيض الصغير بالليفة، وتغسل رأسها بالماء الفاتر والصابون المعطر.

الغويشة الذهب

لم تكن هى قصة الحب التى ظللت أحلم بها طوال سنوات الشباب. ولكن لأننى تجاوزت الثلاثين وأصبح حدوث المعجزات أمراً غير محتمل فقد استقر الرأى على أن أتزوج نوال.

ذهبت إلى الأسرة خاطباً فى ساعة من ساعات العصر الصيفية ولم تستغرق المسألة وقتاً طويلاً حتى وجدت نفسى في وسط مجموعة كبيرة من الأرقام والحسابات، وتكشف لى بشكل حقيقى مدى ضآلة المرتب الذى أتقاضاه.. لم تكن طلبات أمها التى تصل عن طريق صوت أبيها الخشن سوى نوع جديد من الأوامر التى يجب أن أطيعها كما لم أطع أحداً من قبل. فبعد عدة خطوات أصبح للعملية كلها قانونها الخاص الذى يسيرها ويدفعها إلى الأمام ويدفع بى كذلك إلى داخل هذا الحلم الغامض الذى تشغل نوال مركزه.. وتمتلئ أطرافه

بعشرات التفاصيل من المقاعد والدواليب وأشياء السفرة والمطبخ وقماش التنجيد ونجف الصالة والصالون.

وبمرور الأيام والشهور أصبحت رغبتي في الحصول على نوال أكبر من أى شيء آخر في حياتي.. وتحولت إلى بهلوان يقفز فوق كل الحواجز لكي يصل إلى ما تبديه وتغطيه كقماش مصارع الثيران الأحمر.

كنت أحمل الربط واللفف إلى بيتهم وأهرول بها على السلم الضيق حيث أضعها في الصالة فتختفي إلى الأبد ولا أعود أراها أو أسمع عنها. وكانت أمها تبتسم لي مشجعة وأبوها يربت على كتفي ثم يدفعونني إلى الباب مرة أخرى لكي أعود للقفز والسلف والشراء.

قالت لي نوال وهي تذوب رقة إنها تعرف كم تعذبني هذه الأشياء ولابد أن طلبات وشروط العائلة ترهقني.. ولكن ماذا نفعل في هذه الشكليات الضرورية.. لا بأس.. لا بأس.. فهي سوف تذيقني ذوب الحنان والحب والإخلاص.

وقال لي زميلي في العمل لماذا كل هذه التكاليف.. أنت

رجل فلاح بسيط ولا يجب أن تتورط فى كل هذه الأعباء. ربما كان يحسدنى. فهو لا يدرك أنهم يعملون لمصلحتى.. وأنهم سوف يعطوننى ابنتهم، أغلى ما عندهم، وسوف ينقلوننى أيضاً إلى طبقة أخرى غير تلك التى كان يبدو أنها قدرى.

قلت لنوال كل شيء فى المرات التى خرجنا فيها إلى السينما وجلسنا فى الكازينو. قلت لها إننى فقير وإن أبى عندما مات وتركنى وحدى مع أمى الريفية العجوز لم يكن يحلم أن أواصل تعليمى.. ولكن هذه المرأة العجوز القابعة فى البيت الطينى، وسط عشرات البيوت الطينية دفعت بى إلى المدارس والجامعة وإلى الوظيفة وهى لاتزال باقية هناك.

كانت نوال تستمع إلى ويبدو عليها التأثر وتبدى إعجابها بهذه الأم. وهذه الحياة. وتقول لى سوف نزورها يوماً ما بعد الزواج ونرد لها بعض الجميل.

وأهم ما قالته لى نوال: نحن حقاً متفاهمان. ومن حسن الحظ إلتقينا وبعد ذلك لا يهم أى شيء.

شارفت المسألة على النهاية.. وتراكمت.. في الورقة الصغيرة - التي صرت احتفظ بها دائماً في محفظتي - أعداد كبيرة من الديون ولكنني صرت أقرب ما أكون إلى امتلاك نوال.

وفجأة تكشف لي أن البند الأخير في قائمة الطلبات الطويلة وهو مصاريف إلفرح أكبر من أن أستطيع التصرف فيه. حاولت أن أجد مخرجاً ولكن المدينة كلها كانت قد أغلقت أبوابها. صعدت سلم بيت نوال الضيق لكي أخبرهم بالأزمة فلم أجد أحداً يسمع لي. شاهدت نوال وهي ترتمي على السرير باكية وسمعت أمها وهي تهون عليها بكلمات تريدني أن أسمعها.. فشعرت بعد ذلك بتهديد أكيد.

في الصباح انطلقت مسرعاً إلى قريتنا. وجدتها هناك كما تركتها جالسة في صحن الدار وحيدة وحولها بعض الدجاج. قالت أمي «مالك يا ابني» فقلت لها كلاماً كاذباً فصدقته، عن أزمة في العمل ونقود يجب أن تدفع. لمْ أكن أستطيع أن أحكي لها عن الزواج، فهي لاتزال تعامل بنت

عمى على أنها زوجتى المقبلة.. قامت وفتحت الدولاب الخشبى الصغير وأخرجت الغويشة الذهب الباقية ووضعتها فى منديل ودست بها إلى جيب جاكتتى. وقالت وهى تودعنى: إننى يجب أن أرى أولاد عمى فهم يسألون عنى دائماً.

وركبت التاكسى عائداً إلى القاهرة. كنت أتحسس الغويشة وأحلمُ بالفرح وبنوال. وغابت صورة أمى وسط عشرات التفاصيل التى أخذت أفكر فيها ولكننى عندما وصلت إلى القاهرة قلت لنفسى.. لقد كان من حق هذه المرأة العجوز أن تفرح هى الأخرى.

تحقيق صحفي مثير..

اشتعلت النيران فى قرية «كفر شمس» وأحرقت أربعة عشر بيتا من بيوت الفلاحين. اقترحت أنا فى مجلس التحرير أن أذهب لكتابة موضوع عن الحادث، فوافق رئيس التحرير، وصرفت لأجل ذلك بدل سفر.

اختلط صوت عال لشريط مداح جديد بصخب موقف «أحمد حلمى» وانطلق بى التاكسى «البيجو» إلى قلب الدلتا. اشتعلت رأسى بصورة محورية للموضوع الذى سأكتبه، صورة تختلط فيها جثث الأطفال والنساء المحترقة بخضرة الحقول، وأعواد القطن والذرة الجافة بكلمات مأساوية عن تقصير السلطات المحلية، وسوء الطرق الذى أدى إلى استفحال المأساة. تصورت أنهم - بالتأكيد - سيفردون الصفحات الأولى من المجلة للموضوع الذى سأكتبه.

صمت الركاب، وتهممهم للأكل والتدخين أوصلنى إلى

المركز القريب، ثم أسقطتني عربة أخرى مزدحمة بأطفال وصبية المدارس العائدين من مدارسهم عند مدخل قرية «كفر شمس».

لم أجد لهبا ولا حتى رمادا وقادني طابور طويل من التلاميذ الذين يحملون حقائب قديمة، ويثيرون حولهم ترابا كثيفا إلى قلب القرية، صوتهم عال. ولكنه يذوب في الحقول البعيدة. عرفت من رفاق الطريق المترب أن الحريق كان منذ أسبوع. وأنه وقع في طرف القرية الشمالي. وأن هناك إيواء وتحقيقات مازالت تجري في الوحدة الزراعية. لم يكن للحريق ضحايا، ولكن – فقط – إصابات قليلة تتماثل الآن للشفاء.

في دار الوحدة الزراعية حدثت لي مفاجأة. فبعد أن سرت ساعة الغروب الذي اقترب، على الممشى المرصوف ببلاط قديم، ومررت على أحواض زرع ملأتها حشائش طويلة. دخلت إلى صالة أكل النشع جدرانها، هناك تنتظرني المفاجأة، صديقي الدكتور البيطري الفريد حبيب، يحل الكلمات المتقاطعة على مكتب معدني رمادي اللون مقشور الدهان.

خبط على المكتب بقبضته وصاح..

- أخيراً.. اكتملت المأساة المضحكة.

كان صديقا قديما ترجع صداقتنا إلى أيام التنظيمات الشيوعية القديمة. لكنه الآن سمين أصلع منتفخ الأوداج. لم يبق منه سوى عيونه القلقة، وكلماته الحادة السريعة التى تشبه الطلقات.

- أهلا بالصحافة. جئت تتفرج وتكتب عنا تحقيقا مثيرا. جئت من أجل الحريق.. الآن فقط وصل دخان الحريق إلى القاهرة. طفوها خلاص. اكتب الآن يا رفيق عن الحريق الدائم. هل تعرف؟ هل تستطيع؟.

أعرف هذه النبرة الهجومية، وأعرف أن أحسن طريق لامتصاص عنفها هو عدم الاعتراض أو الوقوع فى الاستفزاز. نجحت بعد قليل فى أن أجعله يهدأ ويحكى عن السنوات التى لم نلتق فيها.

الآن أعيش مع عشر بقرات «فريزين» مستوردة. أبحث لها عن طعام، وأعطيها حقن وأدوية. وأبيع لبنها لشركة قطاع عام. تجارب تجارب. طول عمرنا فى تجارب. مرة على الناس ومرة على البقر. تعرف أنا بس باتخن.. البقر

لا.. البقر مش عاجبه جو مصر. عاوز يهاجر.. عاوز عقد عمل. ويعدين صاحبة الجلالة تنهز وتيجى لغاية هنا، علشان حريقة قامت فى عشتين وشوية حطب.

فى الليل عندما ذهبنا إلى غرفته الصغيرة لكى نمضى الليلة معا، كان هو قد أصبح كنار صفت وكادت تتحول إلى رماد. تكوم على سريره المعدنى، وجمع ساقيه بيديه، وأخذ ينتظر إبريق الشاى الذى وضعه على السخان الكهربائى الصغير. كنت أستمع إليه، وأنا الآخر أذوى وأتعجب لما حدث لصديقى ولما حدث فى حياتنا جميعا.

مش عارف ازاى الواحد فقد إحساسه بالزمان والمكان. بعد ٦٧ الواحد ما شفش يوم عدل. كل الحاجات اتساوت، وكل الأماكن بقت زى بعض. الواحد كان لازم يتولد يهودى، ويعيش فى «كيبوتز» تحت الأرض علشان يعرف عروق الخراب والشر الموجودة فى المنطقة دى أصلها إيه. بص من الشباك تلاقى بيوت الطوب الأحمر اللى بناها العساكر اللى رجعوا من اليمن، وجنبها البيوت الطين القديمة زى ماهية، وجنبها الوحدة الزراعية والوحدة الصحية، والمدرسة الجديدة وبينها المصرف

وحواليه ماء النشع والمجارى. وحقول صفراء ما عدتش بتجيب حاجة. نص الرجالة مسافر، ونص النسوان حيطق من الغيظ والفقر. والعيال تايهين وسط تراب السكك ومسلسلات التليفزيون. وأنا قاعد فى الوحدة الزراعية أعبى الشمس فى قزازين، وأتخن.. تعرف تقولى إحنا رايحين فين؟!.

حاولت أن أتقى الضربات والطلقات التى يطلقها فى كل اتجاه.. حاولت أن أقول إننا نبنى الحياة يوما بعد يوم. وإن الله خلق الدنيا فى ستة أو سبعة أيام. وإن الإنسان مثل النمل لم تبق له سوى الأعمال المتكررة الصغيرة. ولكنه لم يقتنع. ظل يذرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهابا، كدب أبيض حبيس.

تمددت أنا على السرير. واستمر هو يلقى خطبا بالعامية والفصحى قبل أن يحل بى النعاس، كانت الصور المشتعلة فى رأسى قد خمدت، وتبددت أحلامى بكتابة تحقيق صحفى مثير، هباء.

العقرب

زوجته سوف ترفض السفر معه إلى الأقصر بالتأكيد.

له زوجة سمينة وبيضاء، عندها كثير من القوة تغطيها بشحمها وجلدها السميك. مشاعره معها تصدر كلها عن إحساسه بأنه مظلوم إلى جوارها ومغبون. قالت له مرة وعيناها السوداوان المليئتان بالكحل تدوران في وجهها اللامع:

– أنا أروح وسط العقارب والحر.. ليه؟ عاوز تموتني طيب وأنا مالي، ذنبي إيه؟!.

لم يكن يفعل سوى أن يحدق فيها في بلادة. يحدق في جسدها الكبير وتستغرق عيناه في الثنايا والتجاعيد ولا يجد كلاما يقوله لها. ليس بينهما منطق أو لغة وكأنهما لا يعيشان معا في شقة واحدة.

ومرة أخرى أجهشت بالبكاء، اهتز جسدها وهي راقدة إلى جواره في السرير، كان متأكدا أنها تتصنع.. تعتقد

أنها أخافته وها هى تحاول أن تسترحمه.. زوجة حكيمة بلهاء. لم يقل شيئاً، واستدار. حاول أن ينام ولكنها كانت تغط فى النوم منذ وقت طويل عندما غلبه هو النعاس.

وعندما حان عصر اليوم الذى سيسافر فيه، كانت تقف في وسط الصالة، ترتدى قميص النوم الذى يكشف عن صدرها البدين المترهل وتستند بيدها على المشمع الكالح وهي لا تستطيع إخفاء قلقها المتوتر فتضع على وجهها قناعا لزجا من التأثر. وكان صوتها الذى يشبه صوت الوز يردد بلا نغم:

– مع السلامة. مع السلامة تروح وتيجى بالسلامة.

لقد أحس بكثير من الراحة وهو يغادر البيت في طريقه إلى المحطة ليلحق بقطار الثامنة.. وضاع في وسط الزحام. وعندما أفاق وجد نفسه في ديوان مزدحم، فيه رجال يتكلمون بصوت عال فأخذ يراقبهم، ولم تمض ساعات حتى كان قد مل الجلوس والقيام، وثقل التراب على عينيه فاختلطت وجوه الجالسين واستسلم لصوت القطار وللظلام المتكرر خارج النافذة.

على الرغم من أنه ليس سوى موظف كتابى صغير، وأنه ليس على الكادر الفنى إلا أن زملاءه في العمل قد استقبلوه فى الصباح استقبالا طيبا. وعندما جلس إلى النافذة فى مكتب رئيس القلم، وكان يرى فى الخارج الحقول الهادئة تمتد أمامه لا يتحرك فيها سوى جاموسة أو جاموستين، اعتقد أن حياته هنا ستكون سعيدة، أو أنه على الأقل سيستطيع أن يلم فى هذا المكان الهادئ أشتات نفسه المبعثرة.

– فى الحقيقة البلد مافيهاش استراحة فاضية، لكن مؤقتا حتنزل مع الأستاذ سيد فى البر الغربى. تعدى النيل، وربع ساعة تكون هناك، استراحة نظيفة وفاضية..

فشكر له اهتمامه ورقته، وقال إنه لا يهمه أى مكان ولكن المهم أن يجد حوله ناساً طيبين.

وفى العصر عندما كان هو وزميله الأستاذ سيد فى طريقهما إلى الاستراحة انتابه إحساس مفاجئ بالحنان والرقة..

إحساس غامض وبعيد كأنه قادم من عالم آخر، وقد

كان هو وسيد يسيران فى طريق زراعى وسط الحقول. والعلاقة بينهما لاتزال فى حدودهما الرسمية. صحيح أن مثل هذه العلاقة يمكن أن تكون عبئاً ولكن ربما لأن سيد كان صغيرا فى السن وعلى وجهه ابتسامة مرحة وطبيعية، فقد أحس هو أنه مرتاح إلى صحبته.. وأن كل شيء هنا سيسير على ما يرام.

- أهى يا سيدى، الاستراحة بتاعتنا.. فيلا وسط الغيطان.

- يا سلام.. دى قريبة كمان من الجبل.

- بعيد عن مصر ودوشة مصر، وابتسم كلاهما وهما يدخلان من باب الحديقة، وأسرع الغفير يحمل الشنطة ويرحب بالزائر الجديد.

ومرت أيام وبدأ يحب هذا المكان. كان يجلس فى العصر على كرسى من الخيزران ويدير وجهه ناحية الصحراء يراقب الشمس وهى تغرب، وتختلط ذكريات المدينة فى رأسه بالراحة والغموض الذى بدأ يشعر به فى هذا المكان، كان يشعر فى بعض اللحظات أنه قد انسحب

من كل مسئولياته وأنه قد أسلم حياته لموجات صغيرة متتابعة كأنها موجات النيل. يحب أن يسمع حكايات الغفير فى المساء.. وأن يستلقى على السرير الجاف فى الليل ويحدق فى السقف ويستمع إلى الأصوات الغريبة تنبعث من حوله داخل الحجرة وفى الحقول.

لم تعد الأيام معلقة رتيبة تضغط عليه مثلما كانت تفعل فى القاهرة ولكنها أصبحت تأخذه إليها فيشعر خلالها بعزلة رحيمة تحيط نفسه وتبعث فيها كل يوم مزيدا من الطمأنينة والهدوء.. وأن الحياة عموما قد أصبحت عادلة بالنسبة له.

وحتى أطرافه الذابلة أصبحت الآن تمتلئ بدبيب يشبه دبيب جيش صغير من النمل الطيب عندما يخرج فى نزهة ليلية أو يراقب ظهور القمر بعد الغروب.

كان فى بعض الأحيان يحاول أن يتذكر زوجته ولكن صورتها لم تكن تجىء. يسود نفسه بدلا من الصورة بعض التوتر والقلق الذى لا يلبث أن يزول عندما يخرج ليتجول أو يجلس إلى غفير الاستراحة ويتركه يسترسل

فى الحديث.

وفى بعض الأحيان كان يأتى زميله سيد ليعرض عليه فى لطف أن يصحبه فى زيارة أو لحضور فرح فكان يعتذر ويقول إنه يفضل البقاء فى الاستراحة، فيضحك سيد وهو ينصرف قائلا:

- لا يا عم إنت الظاهر الحتة عجباك قوى، تكونش عاوز تكتب شعر.

مضى شهر ونصف وكادت الشمس أن تصبح عمودية على الأقصر. فكان يرى وهو عائد إلى الاستراحة سحابات لامعة من الوهج تتألق فوق خضرة الحقول وتنعكس على حدقة عينيه فيغلقهما فى إرهاق.

وفى الليل كانت الحرارة تدفع بالعقارب من تحت الأحجار فتخرج ساعية فوق الرمال وقد رفعت ذنبها الملئ بالسم. حتى سيد زميله لم يعد يراه، وإذا رآه فى الاستراحة فمقابلة سريعة عابرة.. إن الحياة تتحول بسرعة إلى كوب من الماء الساخن لا طعم له ولا مذاق.

وفى تلك الليلة لم يكن فى السماء الداكنة سوى خيط رفيع

من النور، وهبط عليه فجأة شعور أجوف بالفراغ واستقر رأيه على أن يطلب فى الغد أجازة.

وعندما كان يسير عائداً إلى الاستراحة وهو يحاذر العقارب طلع له الغفير فجأة وقال له:

- مالك يا أستاذ. أنت خايف من العقارب وللا إيه.

- أبداً.. الواحد مالهش مزاج.

- كله بتاع ربنا، كل شىء بتاع ربنا.

وفى الصباح حشد ملابسه المتسخة كلها فى الحقيبة وأغلقها فى صعوبة وأخذها معه إلى المكتب. قدم الأجازة وعلى وجهه تجهم شديد وقال له رئيسه وهو يوافق على الطلب:

- عايزينك كده ترجع لنا رايق.. يا أخى ما تخلى الست تيجى معاك.

- متشكرين قوى.. ربنا يعمل اللى فيه الخير.

وفى القطار استغرقه تعب وإرهاق شديد.

فى البيت كان كل شىء كما تركه.. هو الذى تغير. لقد أصبح أكثر ضيقا، وأحس أن زوجته أكثر بدانة وغباء.

ألقى الحقيبة على المنضدة، واستلقى على الكنبة. وكانت هى لاتزال مضطربة تبحث عن الشىء الجديد الذى حل فى وجهه. ولكى يقطع الصمت الذى انتصب بينهما قال لها وهو يذهب إلى حجرة النوم:

- الشنطة فيها هدوم وسخة.. اغسليهم.

أحست فى صوته بشىء حازم وغريب.. فسحبت الشنطة واتجهت بها إلى الحمام. مضت لحظات وهو يحدق فى ظلام غرفة النوم الرطب وفجأة دوت فى صمت الشقة صرخة حادة.

كانت الشنطة مفتوحة والهدوم متناثرة حولها. أما هى فكانت تمسك أصبعها وترفعه إلى السقف، وقد تقلص وجهها من الألم والخوف وأمامها فوق أحد القمصان كانت تقف عقرب كبيرة متحجرة بعد أن قرصت الأصبع البدين.

تحركت عيناه من العقرب إلى زوجته. ومن زوجته إلى العقرب وغرق فى نوبة من الضحك.

العودة إلى القاهرة

كان كل المركز يبدو له صغيراً ضيقا. شوارعه كأنها مسدودة. الآن قد أصبح يستعجل دون جدوى الساعات البطيئة لتنتهى به إلى الرحلة المنتظرة.

أنور معاون الصحة فى أحد المراكز التابعة لمحافظة المنيا سوف يرحل قرب الفجر، فى رحلة تستغرق يوما وليلة إلى القاهرة فى مهمة رسمية.

أنور أبيض سمين دون ترهل، تعدى الثلاثين بسنوات، كل مدة خدمته قضاها فى الأقاليم، مدة خدمته تبدو له وكأنها كل حياته، يمكنه أن يتصور أنه ولد فى أحد مكاتب الصحة هذه، على الكرسى القش، أمام المكتب، إلى جوار النافذة.

يحب أنور الطعام الجيد، والاقتصاد بعض الشىء، يحب أن يكون له مسكن نظيف. يحب أن يتعاطى بعض الأدوية والمقويات، ويحب أن يحفف شاربه، وأن يعتنى

بعضلات صدره، الذي يحب انفتاحه خصوصا عندما يرتدي بدلته الشتوية، ويحب أن يقرأ الجريدة على مهل في العصر. وأن يحتفظ ببعض المجلات، ويقلب فيها، وينفض عنها التراب، في صباح يوم الجمعة عندما لا يغادر مسكنه.

هو لا يحب الذين يشكون. ولا يحب الذين يتكلمون عن أنفسهم ويدخلون الناس في كل شئونهم الخاصة. ولا يحب أن يتدخل أحد في عمله، حتى الأطباء.. الذين حاول بعضهم أن يدخل معه في علاقة صداقة أو شيء من هذا القبيل ولكنه كان يبقيها دائماً في الحدود الرسمية.

موظف مستقيم، لا يسرق، ولا يرتشي، ولا يحب أصلا التجارب الحادة أو المغامرات، خدم في المدينة الكبيرة شهورا في أول التعيين، ثم تنقل في القرى ولكنه يفضل الخدمة في المراكز والبنادر.

ولا يحلم على الإطلاق.

من الذي يتكلم عن القاهرة.

الساعات بطيئة بعد أن أخذ أوراق السفر غادر

المكتب. ووضع الأوراق الرسمية في الشنطة فوق البيجامة والفوطة والقميص النظيف.. ترك الشنطة على الكرسى بجوار الباب، وغادر البيت إلى الميدان الذى يتوسط المركز حيث محطة القطار. لم يكن اليوم يوم خميس ولكنه يوم فى منتصف الأسبوع. لا يغادر المركز أحد، ولا يرد إليه أحد.

أغلب هذه الوجوه تعرفه، وهو يعرفهم، ولكن الجميع الآن يبدون وكأنهم يتحركون فى سراب فوق أرض ملساء. الشوارع لا تؤدى إلى شىء. أشجار «دقن الباشا» الكبيرة تحيط بالمحطة وتغلفها بستارة صفراء غامضة. تشرب شمس العصر لكى تفرز ببطء شديد ظلمة الغروب والمساء. وعينا أنور مغلقتان تحومان فوق المكان لتسقطا فوق قضبان القطار اللامعة التى تمتد إلى هناك.

عاد إلى مسكنه. كل شىء مرتب وفى مكانه.. تماما كما تركه.. قلب فى الجريدة.. وقرر أن يتركها ليقرأها بعد عودته. تصفح فى المجلات ووقف يصنع لنفسه كوبا من الشاى ثم جلس يشربه. أفكار تقفز وتطل برأسها،

ولكنه يتلفت حوله، تمسكا بأهداب حكمة تراكمت خلال السنوات الطويلة من الخدمة فى الأقاليم.

كان يجب أن يرتب اليوم لقاء بينه وبين المرأة التى تزوره. وأن يغلق عليها وعليه الباب حتى موعد القطار، ولكنه فضل أن يبقى وحيدا وها هو الآن لا يدرى ماذا يفعل بوحدته.

أرسل فى طلب فراش المكتب الذى يؤدى له كل الخدمات. جاء إليه بعد لحظات لم يدر ماذا يقول له. أخذ الفراش يدور فى الشقة يقول أشياء لا ضرورة لها. وصنع لنفسه شايا. ودخن ثلاث سجائر وهو يتبادل الحديث مع حضرة المعاون فى مواضيع مختلفة.

أول الليل يزحف فى كسل، وأمامه الليل كله. القطار لن يغادر قبل الثالثة. الفراش يقترح أن يذهبا معا إلى منزله حتى تعد لهما زوجته عشاء بسيطاً، ويقضيا بعض الوقت، ولكنه يرفض. وينزل مرة أخرى إلى الميدان حيث يتركه الفراش لكى يذهب إلى منزله.

ليس فى الميدان سوى نور خافت وبعض النائمين

لصق جدار المحطة. الدكان الذى يعرفه نصف مضاء، يقدم لبعض الزبائن.. بعض الشراب.

إنه لا يجلس هنا إلا نادرا.

ولكنه يشرب الليلة. ويحسب النقود، ويستجمع شجاعته ليجعل الأشياء التى تدور تثبت فى مكانها. «قلقاسة» الذى يقدم الشراب للموائد القليلة الباقية يلتفت إليه كثيراً، ثم تهرب عيناه من عينى أنور اللتين تنطقان بالجد والأهمية.

قد يحدث شىء.

هل يعرف قلقاسة هذا معنى العودة إلى القاهرة.

واستقر أخيرا فى مقعد الدرجة الثانية الوثير. الليل حوله مظلم. يمر القطار بعشرات القرى. لا يقف. المحطات نائمة لا تدرى هى الأخرى معنى العودة إلى القاهرة. وعندما بدأت آثار الخمر الرديئة تتبخر من رأسه كان الصباح يطلع عليها بضوئه اللاسع.

ارتدى قميصه النظيف فى القطار وأسرع فى شوارع القاهرة، ليكون فى المستشفى الكبير قبل زحمة الزوار.

أمضى النهار كله فى المستشفى. وسلم على بعض الزملاء القدامى. سلم الدفاتر والأوراق وأنهى المهمة مع الموظفين، وفى الثالثة كان يراقب الجميع عائدين إلى منازلهم. الحقيبة في يده، لا داعى للذهاب إلى أى لوكاندة.

قد يحدث شىء.

تطلع أنور فى الوجوه وجمع لنفسه بعض الملاحظات؛ وتذكر أحاديثه مع فراش المكتب. والمرأة التى تزوره. وعينى «قلقاسة»، ورأى فى الشارع وجوها كثيرة تسأله عن معنى العودة إلى القاهرة.

أخذت الساعات البطيئة تدفعه فى دوران لا ينتهى حول «باب الحديد»، منتظراً قطار المساء الذى يغادر القاهرة فى أول الليل.

الكاتب والمحبوب

عندما فتح عينيه سأل نفسه لماذا يكتب؟ حاول أن يغمض عينيه مرة أخرى لعله يجد فى الظلام جوابا لا يصل إليه فى النور.. لكن الدنيا دارت به، وأخذ يتقلب فى الفراش، فنهض قبل أن تستيقظ زوجته.

شرب قهوة وعددا من السجائر وهو يجمع أوراق القصص الثلاث التى سيحملها اليوم إلى القاهرة وأخرج من أركان الحجرة عدداً من الكتب القديمة التى سيحملها للأصدقاء هناك وأسرع يرتدى ملابس خفيفة وبسيطة، عندما نظر فى المرآة نصف المعتمة قال لنفسه.. أعتقد أنه لا يبدو على أننى كاتب من الأقاليم.

كتب القصص الثلاث خلال الشهر الماضى. وأحبها. أحب الوضوح والبساطة التى حاول الوصول إليها.

القصة الأولى عن ورد النيل. قرأ فى تاريخ النبات وتاريخ الفراعنة ورجع إلى قصاصات كثيرة جمعها من

الجرائد والمجلات. الثانية كانت عن سلم خشبى مكسور فى بيتهم الريفى القديم.. كان كابوساً دائماً.. أحس وهو يكتب القصة أنه يتخلص من الكابوس. وأحس أنه وصل إلى إيقاع جديد، وحلو. فسماها السلم. إنها موسيقى صرفة. هكذا يعتقد.

أما الثالثة فقد كانت عن الصياد العجوز الذى كان يعيش إلى جوار الكوبرى القديم فى قريتهم. كان ينظر إليه على اعتباره نبيا يدعو إلى العودة إلى الطبيعة. لقد وضع فى هذه القصة رسالة. ساوره شك كثير وهو يكتبها.. هل يحتمل الفن كل هذه المباشرة والكلام الصريح!.

منذ أن عاش هنا، أربع سنوات الآن، وهو يحاول الكتابة. يقرأ ويفكر. ويكتب فى كل الليالى. يبحث فى الفجر عن الأفكار. ويخط أثناء عمله في الأوراق. ويحاول أن يتحدث إلى زوجته في لحظات الصفاء عن معنى الكتابة ودور الكاتب بالنسبة للمجتمع. كان يحدق فى وجهها وهى نائمة ويسأل نفسه.. هل هى مقتنعة به؟ هل ستجمع أوراقه بعد أن يموت؟ القصص المتباعدة التى

نشرت له لا تعنى شيئاً! كل شيء هنا في رأسه. في قلبه. في عيونه التي ترى.. وعلى طرف هذا القلم الذي لا يريد أن يفصح عن كل شيء.

دخلت عليه غرفته بشوشة وقالت: تسافر اليوم؟ لا تنس حبوب الولد. ولا تتأخر علينا. ساعدته في جمع أوراقه، وعادت تحمل له طفلهما الصغير لكي يقبله.

أسرع خارجاً وهو يقبض في يده على الأوراق المطبوعة على الماكينة وعلى الكتب. أجزاء من قلبه وروحه، بعضها في صفاء زوجته وحنانها.

عندما دخل إلى زحام شوارع القاهرة، أحس بالخوف والحرج، أزعج بطء حركته سائق العربة الذي كاد يصدمه وهو يعبر الشارع أمام المجلة التي يقصدها. صاح فيه قائلا: فتح يا فلاح.

كان الناقد الكبير يتحدث في التليفون. رحب به وأشار إلى مقعد قريب.. تأمل الصور والزجاج اللامع وأخرج الأوراق، أعاد النظر فيها وتوقف عند الكلمات والجمل التي يحبها، حتى يفرغ الناقد من حديثه التليفوني

الطويل، شـرب شـايا لا طعم له، عـاوده السـؤال.. لماذا يكتب؟ ولمن؟.

تبادل معه كلمات قليلة، ثم دخلت فتاة حسناء فسكت. نظر إلى حذائه المترب. امتـلأت الغرفة بعدد من الناس. مـد الناقـد يده فـأعطاه القـصص. حـاول أن يتكلم ولكن رنين التليفون أسكته.

أخيرا نظر الناقد إلى أوراقه وقال: عال.. عال. ثلاثة مـرة واحـدة. نحن نعـرف أنك على الطريق. سـتـأخـذ القـصص دورها.. لا تتـأخـر علينا. نريد دائماً أن نراك.. شكراً.

قام واقفا. أحس بحرج شديد وهو يخرج من الحجرة وكأن قلبه قد انتزع منه.

عندمـا أدار المفـتـاح فـى باب الشـقة سـمـع بكاء طفله. كانت زوجته واقـفة فى الصـالة. قالت له: حمدا لله على السلامة، هل أحضرت الحبوب؟ فعاوده دوار شديد.

أصول اللعبة

كنت أشعر به دائما ورائى، عيونه فى ظهرى وعند أطراف أصابعى. هو زميلى فى المكتب ورفيقى فى كثير من أوقات الفراغ واللهو. لكن وجوده يخنقنى ويهدد أمنى واستقرارى.

أذكر جيدا متى بدأ يراودنى هذا الشعور. أعرف أنه لم يفارقنى من يومها. يوم أن رأيت زميلى ممسكا بخطاب من خطابات العمل الرسمية، يتهامس فى نهاية الغرفة مع رئيسنا، ويكرر الإيماء برأسه ناحيتى وكأننى موضوع الحديث.

لم يفارقني من يومها الشعور بأنه عين على. لم أصارح أحدا، لم أصارحه طبعا، لكننى من يومها أخذت أرقب زحف ظل وجوده الثقيل على أدق تفاصيل حياتى.

كان التنافس في مكتبنا حادا، وقد زاده اشتعالات ذلك الرواج الذي ساد أعمال رئيسنا وتلك النظرة اللاهية للحماس الواعدة بالمكافأة التي أطلقها علينا. كان يجيد تبديل مواقع موظفيه منه، حتى يكسب ما عندهم ويضمن ولاءهم.

أخشى ما أخشاه كانت نظرة اللامبالاة التي يمر بها رئيسي فوق مكتبي كل صباح بخطواته المتعجلة ووجهه الحليق.

إن كلي ثقة بأن هناك ارتباطا أكيداً بين نظرة رئيسي اللامبالية التي تعبرني كل صباح، وبين حديث النميمة الذي دار بينه وبين زميلي في نهاية الغرفة.

زادت في قلبي الهواجس، وأصبحت أشك في كل تصرفاتي وأراجع أوراق العمل أكثر من مرة، بل لقد أصبحت أشك في أمانتي نفسها وولائي لصاحب العمل.

استعنت على أوهامي بالخلق الكريم، وبابتسامة حائرة أخفيت بها خوفي. ولكن شعوري بأن زميلي يراقبني ويشي بي، أثقل أطرافي وحط على قلبي بهم كبير.

وحتى فى ذلك الصباح المبكر عندما وقف رئيسنا أمام مكتبى ليعلن لى أنه قد استغنى عن خدمات زميلى نهائيا، أصبحت أنا مسئولا أمامه عن كل شيء، لم يفارقنى الشعور بأن زميلى يراقبنى، ورأيت عينيه تملآن الجدار خلف رئيسى فتلفت حولى فى فزع.

الوقح

انتهى النهار ولم يبق على حضور المدعوين سوى ساعات قليلة. زملاؤه فى العمل مدعوون عنده فى سهرة كبيرة للتهنئة بالترقية الاستثنائية التى حصل عليها.

اختار من بين الزملاء أهمهم وأنفعهم. وملأ البيت بالطعام والشراب، فتح نوافذ الشقة الكثيرة التى لا يفتحها إلا قليلاً وارتدى قميصاً جديداً، وبقى ينتظر توافدهم فى أول المساء.

تذكر أنه لم يلق على زوجته التعليمات الأخيرة، بخصوص التصرف، وترتيب تقديم الطعام، والاهتمام بهذا وذاك، فأسرع إليها فى حجرة النوم وهى ترتدى ملابسها وقف يلقى تعليماته الأخيرة.

كانت عيناها الواسعتان ملئتين بالذعر والارتباك، وأخذت تستمع إلى تعليماته وهو يردد بين كلمة وأخرى،

«واخدة بالك.. واخدة بالك» وتهز رأسها في استسلام وعجز.

لقد مضت سنوات خمس هي كل فترة زواجهما، هو يجرى بهذا الشكل، يحصل على ترقية وراء أخرى ويلهث وراء الفرص هنا وهناك ويسحبها من يدها مغمضة العينين وكأنها منومة.

كلما زاد تجاحه في العمل زاد الفراغ الذي يملأ صدره ويطل من عينيه. كان يحب السيطرة أكثر، والتدخل في كل كبيرة وصغيرة، حتى في البيت والمطبخ وترتيب الأشياء في الحمام.

كانت تسأل نفسها لماذا يحتاج مثل هذا الرجل إلى زوجة. وفي قلبها لم تكن تجد إجابة، ولكنه كان يقول لها دون أن تسأله.. «أنت شريكة حياتي، جزء من النجاح الذي أريده».

لم ينجبا أولاداً. وعندما يثار موضوع الأولاد كان يقول بسرعة: كويس كده.. كويس.. مش وقته.

وقف إلى جوارها في المرآة، وسوى شعره، ووضع

نقطة من الرائحة النفاذة التى يستعملها وطبع على جبهتها قبلة باردة. وقال : «كله تمام».. وابتسما.

أضاء الأنوار فى الصالة الكبيرة ووقف وحده ينتظر. كان يبدو واثقاً من نفسه راضياً كل الرضى عن الأشياء المحيطة به ولو لم تكن تعرفه لشعرت أنه جزء من هذا الأثاث اللامع المحدد الزوايا.

لحظات بداية الحفل كانت ثقيلة وبطيئة، فأول الحاضرين هم صغار الزملاء الذين يراقبون كل شئ فى برود ولا يحسنون إخفاء غيرتهم من نجاحه، وهو أيضاً لم يكن يبذل جهداً لتسليتهم أو الاهتمام بهم. فتركهم لزوجته تقول كلمة هنا وكلمة هناك وتوزع عليهم ابتساماتها الذابلة.

تقدم الليل وامتلأت الشقة بالضيوف وجاء المدير وكبار المسئولين فى الشركة. وبدأ الداعى يظهر كل براعته، كان ينتقل بين ضيوفه المهمين، تجده دائماً فى المكان الملائم. يقول كلمته البارعة القصيرة والسريعة ويبعث هنا الابتسام وهناك الضحك الصاخب.

ومع المساء الذى كان يتقدم والشراب الذى ينسكب بوفرة، امتلأت أركان الشقة بكلمات تقال فى همس بين اثنين أو ثلاثة تسكت عندما يقترب وتعلو عندما يبتعد.. وهو يطارد الكلمات كأنه قناص ماهر.

وعيون الزملاء تراقب كل شئ فى الشقة، تتحسس الأثاث وتفسر الوفرة فى كل شئ عشرات التفسيرات.

لقد سمعت زوجته كلمات: منافق.. وقح.. تتردد فى أحد الأركان، وتلفتت حولها فى ذعر وكأنها تخشى أن يتحطم كل شئ.. ولكن الكلمات كانت تذوب.. تلفها الابتسامات والتهانى والكلمات الأخرى المغلفة فى «السلوفان».

أخذ الجميع يسمعون فى هدوء لصوت المدير الرزين المتزن وهو يقرظ الداعى ويقول إنه يستطيع أن يعطى العمل كل نفسه وإنه حقاً أحد القلائل الذين يمتازون بالطاعة والنظام، وسلط عينيه فى عيون الحاضرين ليسكت ما يدور فى عقولهم.

كان وجهه يقطر بالسعادة التى حاول إخفاءها وراء

القناع المنشغل الذى يكسو به تقاطيعه. ولكن زوجته استطاعت أن ترى النهم يملأ كل الفراغ الذى تعرف أنه يسكن صدره.

قام المدير يصحبه المسئولون فى الشركة ووقف هو وزوجته على الباب ليودعا الجميع وهم ينصرفون، تاركين فى كل مكان بقايا الأشياء والنظرات والكلمات.

كانت زوجته تشعر أن الجميع ينظرون إليها على أنها جزء من هذا النجاح. جزء يملكه ويحسن الدفاع عنه.

وعندما صارا وحيدين، دار فى الشقة يبتسم لنفسه، ووقف فى نفس الصالة صلبا ومنتصراً. دخلت هى إلى غرفة النوم تزيل آثار الزينة. وبقى هو جالساً فى الكرسى يبتسم لنفسه ويعانق النجاح.

المرمطون

غلب أحمد النعاس فنام على الكرسى فى آخر المقهى. كان متعباً وعيناه تؤلمانه. كل جسده يؤلمه، الساقين، والأكتاف، وعضلات الظهر، فما إن رأى الكرسى القديم فى ركن المقهى الذى بدأ يخلو من الزبائن حتى جلس عليه وراح فى نوم ريفى ثقيل.

كان آخر ما رآه هو الساقان المتفرجتان لزوجة الخواجة وقد مالت عليه تراجعه فى الحساب، مقدمات النوم بالنسبة له دائماً هى ذلك الخدر الجنسى الذى يختلط عنده بكل اللذائذ التى يعرفها النوم والأكل والتدخين وشرب الماء الساقع.

أمسكه عم على الجرسون من نهاية رقبته المعروقة وقال :

– قوم .. اخلص .. عايزين نروح.

قام يسحب نفسه ليجمع الأكواب والفناجين الفارغة

ويضعها فى حوض الماء ويجمع المفارش.

صاح الخواجة دون أن ينظر إليه:

– طبق المفارش كويس.

وامتلأ فراغ المحل بجسد الزوجة البدين، الذى أخذ يتحرك فى المحل فى هدوء وثقة.

أطفأوا الأنوار الكبيرة، وانصرف آخر الزبائن، ذهب عم على الجرسون إلى الخواجة وزوجته يراجعون الحساب، وبقى أحمد وحده. وجهه تحت النور الكابى بلا ملامح وعيناه حمراوتان من الرموش، والجزء الذى يظهر من ساقيه فى آخر جلبابه القصير رفيع بارز العظم وقد التحق الشعر الناحل فيه بالجلد السميك.

عاد إلى نفس الكرسى، عاوده نفس الخدر وهو يحدق فى أرداف المرأة البارزة على حواف الكرسى، وبدأت تعاوده من جديد نوبة النوم الثقيل.. ألذ لحظات النوم تلك التى توقظه منها دائماً يد عم على الجرسون وهى تمسك برقبته المعروقة ويقول :

– تشطيب.

يسحب بصعوبة الباب المعدنى الثقيل ويطفئ اخر الأنوار. يسقط أمامه ظلام شديد يشمل الموائد والمقاعد والمرايا، يتجه الخواجة خلف زوجته، ويأخذ عم على الجرسون منه المفاتيح الثقيلة، ويختفى الجميع بسرعة فى الشوارع المظلمة التى تحيط بالمقهى، لم يعد للنوم بعد هذه «التعسيلة» الثقيلة طعم. والطريق إلى الغرفة الموجودة تحت السلم يمر بالميدان والشارع الكبير والحوارى والعطوف، وليس فيها سوى ما يحمله على جسده وأقل القليل، وليس فيها هواء.

زوجة الخواجة كانت تصيح:

- المرمطون .. مش ينزل طلبات.

اهتزت الصينية المعدنية. وعاد يجمع الأكواب والفناجين الفارغة، يذهب خلف النصبة، عند حوض الماء. يسحب قدميه على بلاط المقهى. يختلس النظر إلى زوجة الخواجة عندما يراها فى أحلامه عارية تكون دائماً هى المسيطرة ويستيقظ دائماً وهى تصرخ فيه.

كم كان بلاط المقهى أرحم على قدميه المتعبتين من

أرصفة الشارع المليئة بالمطبات والزلط.. هل سيأكل غدا مع عم على الجرسون كما فعل اليوم. سيجارة واحدة أم سيجارتين؟.

واقترب أحمد من العطفة الأخيرة.. حيث يدخل بعد ذلك مباشرة إلى الغرفة التى يسكنها ويترك العالم ليسقط عليه ضوء الفجر. لن ينام سوى ساعات قليلة ويعود إلى المقهى فى الصباح.

الدموع الحجرية

استراح جسدها بالماء الساخن فى البانيو. وقف زوجها أمامها عاريا فى نصف ملابسه. قال إن هناك أشياء ناقصة فى حقيبة السفر الصغيرة، أحست بالخدر يزيد فى أطرافها. وعدته بأن كل شيء سيكون جاهزا فى الصباح.

أمسكت بمفاتيح الشقة والسيارة فى يدها. وهى تدق بكعب حذائها مدخل العمارة قرب الفجر، لكى تحمله إلى المطار، قالت لنفسها.. «زوجى .. حريتى.. حبى البارد، كرخام أرض المدخل المصنوع فى عمارتنا الجديدة».

طريق المطار كان يكسوه دخان وتراب يرتفعان عن مقابر القاهرة. هو إلى جوارها بعيد، أنيق، يذكرها ببعض التليفونات الضرورية، وبعض الإجراءات، قالت..

لا تخف، لن أنسى شيئاً.

أخذت تفكر فى لون ملابسها الداخلية فى المساء، تركته للمساعد الذى ينهى له إجراءات السفر، عادت من

نفس الطريق، تقود سيارتها بسرعة أكبر، مالت بجسدها في المنحنيات، وفتحت الراديو وأغلقته، واستبد بها نعاس.

الزحام، حركة الناس حول محطات الأتوبيس، ومطاعم الفول، وبائعي الجرائد، ميلاد يوم جديد لا مكان لها فيه.

عندما دقت بكعب حذائها على المدخل الرخامي المصنوع أحست أنها تدخل إلى ضريح.

دلفت إلى الشقة. أضاءت أنوار الكهرباء المباشرة وغير المباشرة ثم أعادت إطفاءها من جديد.

لم تدر ماذا تفعل برأسها. هي ترى رؤيا العين مسافة مستعصية بين ما في رأسها، وبين تلك الأزرار والزوايا والزجاج. لم تجد مخرجا سوى أن تستلقي مرة أخرى، في ماء حمامها الساخن.

كيف يستطيع ذلك الرجل الأنيق، الضئيل، زوجها، الحاضر الغائب أن يكون له كل هذا الحضور المنتظم كدقات نقط ماء على رأس امرأة حليق. جدول أعماله اليومي، والارتباطات، نقوده، حسابات البنك، والمكتب، والعمارة. أوراقه البيضاء اللامعة، يملؤها خط يده الدقيق. حروف حمراء، وخطوط زرقاء مزدوجة تحت

الأحرف والأرقام، تخنقها، تدفعها.. تدفعها تحت الماء.

سألت نفسها هل هو عشيقي ذلك الرجل الآخر، ذو الشعر الخشن، لماذا تذكر دائماً ذقنه، أصابعه المليئة بالنبض. كلما ذكرته أحست بأعشاب على رقبتها، أو طعم خمرة فى حلقها.. ولا تبتلع، تأتيها ذكراه وهى فى الماء، أو وهى مع زوجها، تأتيها أكثر.. عندما يسقط قلبها فى فراغ.

حاورته ثلاث مرات بالتليفون قبل العصر، عند الغروب كانت معه فى الطرف الآخر من القاهرة، وقفا إلى جوار حقل مريض الزرع، وفلاح وحيد، وشمس تسقط فى دخان كثيف، ذقنه العريضة وأصابعه كنقطتي ضوء فى ظلام العربة الداكن.

«زوجى.. حريتى.. حبى البارد» أحست بصدرها وأردافها تلامس رخاما باردا. ابتعدت عنها الذقن العريضة والأصابع. سقط أمامها مئات فى ستائر النايلون الشفاف.

هل يسرى الزوج فى العروق، باردا، نظيفاً، ناصعاً، بدلا من الدماء. كيف وقع لها هذا الحصار من الداخل

والخارج. ماذا أخذ منها زوجها في مقابل السيارة والعمارة والنقود. ماذا تعطى هذه الذقن والأصابع سوى ارتجافة في الرقبة أو في عمودها الفقري؟.

ألن تكون لها أبدا حياة؟

أخذها كالعادة. عندما أفاقت وجدت حولها بقايا أشياء ودخان وجدته ينظر إليها عارية، وقد أسند ذقنه بكفه وأصابعه.

كانت القاهرة نائمة، في أول ليل شتاء، نوافذ الشقق تضيئها أنوار التليفزيون، بدت لها المسافة إلى بيتها بعيدة. خافت من العربات المسرعة، ومن الأشباح التى تتساند عند النواصى، كم هى وحيدة. شد رأسها من الخلف صداع باتر.

فتحت الشقة فرأت زوجها جالسا في كل مكان. عندما سقطت على المقعد، أحست تحت أقدامها العارية بجمرة فحم مشتعل.

سالت من عينيها دموع من حجر.

تاريخ حياة رجل

على الرغم من كل سنوات العمر التي تقترب من نصف المائة، على الرغم من كل الشوارع والحوارى والمدن والقرى والحدود والطرق الممتدة التي عرفها وجال فيها، فإنه بات يشعر هذه الأيام بأنه عاش ويعيش وسوف يموت على هامش الحياة.

حمزة البهلوان لم يكن ضعيفاً، ولم يكن يعرف أمراض الفكر والعقل التي تنخر في عظام الرجال، إلا أنه كان يملك عيوناً زرقاء صافية يحب أن ينظر بها إلى قمم الأشجار، والسماء البعيدة، حيث الغيب والنجوم، وقوانين العالم الخفية.

عندما يدق طبلته السريعة، ويصيح صيحات الحرب والعمل والجنون، ويبدأ الأطفال، والرجال والنساء في التجمع وتكوين حلقة حوله، وحوله «توسكا» الكلبة، و«العنتر» ابنه، ويلقى في وسط الدائرة بالسلاسل، والحبال، وسيخ النار، وطارة العجلة القديمة، وصندوق

الأسرار، فإنه يشعر بأنه هو مركز العالم، ومحور الدوران كله، لكن عندما يذهب الجميع وتنفض الحلقة ، ويعود هو يجمع الأشياء في الكيس الكبير، ويجلس العتر إلى جوار كلبه، فإن حمزة كان يجد صعوبة شديدة في أن يبدأ أي حديث، ويشعر حقاً بأنه على هامش الحياة، وبأنه وحيد، وأن العتر ابنه الصامت، مصدر هم جديد، لا يعرف كيف يواجهه.

ماتت نرجس زوجته التي كانت تجمع النقود، تحولت ملابسها الملونة إلى خرق قماش رتق بها هو الكيس الكبير، ماتت أيضاً توسكا، بعد أن نحل شعرها، وأصبحت لا تكف عن الهرش في أثناء أداء الألعاب، لم يبق إلا هو و«العتر» ابنه والحبال والسلاسل وسيخ النار الذي صار يكره استعماله ويلغيه في أكثر العروض.

في كل مرة عندما ينجح في كسر سلاسل الحديد، وفك الحبال والخروج من أسرها جميعاً، فإنه كان ينهض من الأرض على وقع تصفيق الأطفال والمشاهدين، يحلق سعيداً في السماء، لا يرجعه إلى الأرض سوى النظرة المصمتة النافذة التي يستقبله بها «العتر» وهو يستأذن

فى جمع النقود.

كان اليوم مجزياً، قدم فى شوارع المدينة خمس جولات، وأحصى «العتر» ما يقرب من خمسة جنيهات، عادا مبكرين إلى الغرفة الصغيرة المليئة بقطع الحديد والزلط، واستطاع هو أن يشرب عدداً لا بأس به من كراسى الحشيش، وأن يجرع زجاجة كينا صغيرة، أعاد «العتر» ترتيب قطع الحديد التى يلعب بها، ولصق الطائرة الورقية، ونام وهو جالس فى وسط الفراش الواسع.

أما هو فقد فتح باب الغرفة وجلس على عتبتها محدقاً فى الظلام الواسع الذى تملؤه كلاب تلعب، وتحده من بعيد أضواء المدينة الساهرة.

عاوده نفس الشعور الذى بات يتردد عليه كثيراً، خاصة فى أول الليل، أول ما يفتح عيونه فى الصباح.. شعوره بأنه على هامش الحياة.

أسند رأسه إلى الجدار الخشن وراح يعيد ترتيب الإجراءات التى سيقوم بها.. سيقف يوماً كاملاً فى طابور السجل المدنى، حاملاً أوراقاً وصوراً، وسيقف العتر معه.. يوماً كاملاً أو أياماً لا يهم، ستكون له بطاقة جديدة،

وسيضعها فى المحفظة الجلدية التى عثرت عليها نرجس. سيكتب اسم العتر فى صفحة مستقلة. إنه فى حاجة إلى ورقة جديدة لكى يغير المهنة، لكى يرفع كلمة عاطل، ويضع بدلاً منها كلمة عامل، أى عامل، ورقة سيحصل عليها غداً من أحد الأعيان الجدد الذين يجلسون عاطلين بلا عمل على المقهى، وسيدفع جنيهين.

أخرج بطاقته القديمة، وأخذ يحدق فى الحروف والرسوم، وفى ختم النسر المطبوع والإمضاءات والأرقام.

سأل نفسه لماذا لا يحمل الناس دفاتر صغيرة تحوى تاريخ حياتهم، وأين ذهبوا، وماذا فعلوا وماذا لم يفعلوا، دفاتر يسجل الناس فيها حسابهم مع الدنيا، مع الليل والنهار.

سمع العتر يدمدم وهو نائم بكلمات عالية، وفكر فى الموت، والمستقبل، وراقب نوافذ بعيدة تطفئ أنوارها ويحل بها ظلام.

ورأى قبل أن يغلبه النعاس طوابير طويلة من الناس الصم، يعبرونه دون التفات.

المتوحشة والجلاد

(فى منتصف الطريق تعطلت السيارة.. تركته يحاول إصلاح أشياء فى «الموتور» وتطلعت حولها إلى الصحراء. هل يمكن أن تترك حياتها تضيع هكذا معه، اختفى نصفه داخل السيارة، لم تعد ترى سوى ظهره وساقيه، السيارات الأخرى تمر مسرعة، لا أحد يتوقف. أصبحت هى وهو وحدهما فى هذا التيه.

(ابتعدت خطوات. بحثت في الأفق عن شيء تنشغل به ولكنها لم تجد سوى رمال وتلال بيضاء.

(أدارت رأسها ناحيته، وصاحت:

– ألن تفرغ أبداً!؟ يجب أن نكون فى البيت قبل أن ينام الأولاد.

(لم تعتن بسماع رده، فقد كانت تعرف أنه يطلب منها أن تصبر وألا ترهق أعصابها.

(أصبحت تعرف أغلب إجاباته قبل أن يتلفظ بها،

أصبح صوته يدق على أعصابها في رتابة، وخاصة طريقته في مط نهاية الكلمات.

(رحلة ملعونة، متى تنتهي؟ تمنت أن تنشق الصحراء عن جني، أو فارس، أو حتى قاطع طريق يخطفها ويضع حداً لكل شيء.

(أخرج رأسه، وأغلق «موتور» السيارة، ودعاها مرة أخرى للركوب، مسح يديه والعرق الذي تصبب من وجهه، بدأ يشرح في هدوء نوع العطل الذي أصاب السيارة، وماذا فعل بالضبط وما هي الإجراءات التي سيتخذها عند العودة، كأنه يكلم نفسه.

(أدارت راديو السيارة، أغلقته، وقالت:

- فهمت، فهمت..ألا تتركني أبداً لحالي.

عاد يصفر بفمه لحن الأغنية التي فتحت عليها الراديو ثم أغلقته وابتسم تلك الابتسامة الخاصة التي يواجه بها بخار الغليان الذي يتصاعد من داخلها.

(في استراحة على الطريق شرب هو فنجاناً من القهوة، ولم تشرب هي سوى كوب ماء، حدقت في ملامح

وجهه، لا أحد يمكن أن يصدق أن هذا الرجل الذى يجلس أمامها جلاد يجلدها كل لحظة بالصمت والابتسام. صفير فمه يجلدها يكرر لها دائماً. افعلى ما تشائين، أما الطلاق فلن تحصلى عليه أبداً.

(حط ذباب على مفرش المائدة. بدت لها كل طرق الحياة مسدودة. كيف يرتكب الناس الجرائم. كيف يضعون السم فى الفنجان أو يطعنون الأجساد فى الظهر بالسكين. ابتسم للجرسون وهو يدفع الحساب.

(عاد إلى السيارة، قال:

- هل تذكرتى بعض الهدايا للأولاد ؟.

(لم ترد. عاد مسرعاً إلى المقهى، اختفى داخل الاستراحة، وحدها فى السيارة. فى القصص والسينما يهربن، ينطلقن بالسيارة فى طريق الحياة لكن إلى أين. لم تبدو الدنيا ضيقة خانقة إلى هذا الحد؟.

فيما تبقى من طريق، والعربة تدخل بهما إلى المدينة المختنقة والمرور اللعين، تجنبت أن تعود إلى النقاش المكرر المعاد، تجنبت أن تسمعه يعيد مرة أخرى على مسامعها

فى برود:

- حريتك. حريتك. لماذا تريدين أنت حريتك. وأنا لم أعرف يوماً معناها.

دخلا إلى البيت معاً، كانت تشعر بنفسها مشدودة وراءه بحبال غليظة خشنة.

أسرع إلى الثلاجة يشرب، ويخرج لنفسه طعاماً وهو يردد كلمات كل يوم عن الطعام والنظام ونظافة البيت.

أما هى فقد دخلت إلى غرفة الأولاد. كانا قد ناما وتناثر في الحجرة لعب مكسورة، وبقايا طعام.

ألقت بنفسها على الكنبة وهى مازالت فى ملابسها، دفنت رأسها فى المخدة. فى لحظات ما بين النوم والإغماء رأت نفسها نمرة متوحشة تخمش وجه زوجها بأظافرها الطويلة الصلبة.

الحفل الرسمي

عندما وصلتني بطاقة الدعوة قررت أن أذهب إلى حفل العشاء الرسمى الفاخر، رغم أننى أعرف أن بدلتى السوداء رثة ولا تليق، لكن من أنا على أية حال؟! سيكون هناك عشرات ممن هم أهم منى. سأكون فى آخر الصفوف، وفى الضوء الخافت ولن توجه إلى أبداً فلاشات الكاميرات.

أستطيع أن أبقى فى الخلف وأن أراقب كل شيء.

بعد أن خضعت للتفتيش فى مدخل القاعة، ووضع رجل بلا ملامح يده على جسدى، وبين ساقى قال:

– علبة سجائر؟.

قلت

– نعم.

قال فى استهانة.

– اتفضل.

أول من قابلت فى الحفل قال لى:

– عبد الله شديد.. الصحفى الكبير.

قلت:

– لا.. أنا حسنى عبد الحميد.

قال:

– أنت تشبهه إلى حد كبير.

قلت:

– مات منذ ثلاث سنوات.

قال:

– ومنير فهمى؟.

قلت:

– مات هو الآخر.

وضع يده على كتفى فى حركة مفاجئة وقال هامساً:

– لقد كنتم معاً.. كلكم.. أليس كذلك..؟.

حدقت فى وجهه لكى أتعرف عليه أو أتذكره. لكنه كان هو الآخر بلا ملامح. قبل أن ينسحب ترك فى يدى زجاجة

خمر كبيرة شبه فارغة.

وجدت نفسى فى الأطراف بعيداً عن دائرة الضوء فى الحفل. شعرت برغبة عارمة فى اقتحام هذه الدائرة بعد أن أفرغت ما بالزجاجة فى جوفى.

وأنا أحسب طريقة وخطوات الاقتحام، سمعت من يصرخ.. حسنى عبد الحميد يا كلب.. يا ابن الكلب.. كان الصوت مخموراً صارخاً كأنه ثوب حرير يتمزق.. وفى ثوان أحسست بأكواب زجاجية متطايرة تحاصر رأسى.. استمرت الأكواب والزجاجات تحاصرنى. وارتبك الحفل والصوت يعلو قائلاً:

– ماذا جاء بك يا ابن.. تريد أن تأكل دماغى وأصابعى.

كان يرتدى ملابس غريبة. بنطلون قصير. وفى يده مضرب تنس.. وأوراق كثيرة وزجاجات.

دخل القاعة أربعة من الرجال الذين لا ملامح لهم أمسكوا بى وقبضوا على. فتح أحدهم فمه وهو يضع

القيد الحديدى فى يدى وقال:

- نحن نعرفه.. نعرفه جيداً.. ولكن أنت من أنت.

قلت بصوت كأنه ليس صوتى:

- أنا مفكر.. فقط مفكر عربى.

ثلاثة نقوش في الزمان والمكان

يمكن أن تكون ممن لا يعرفون الأسكندرية جيداً.. ولكن هذا الحادث لا يمكن أن يقع إلا هناك.. فى واحد من شوارعها الصغيرة الضيقة التى تنحدر مباشرة أو غير مباشرة إلى البحر.. فى هذه الشوارع يمكن أن يحدث أى شىء، أن تنشق الفواصل بين حجارة الرصيف عن جنيات عرايا يظهرن ويختفين فجأة فى لحظات، أو تسقط طفلة صغيرة أمام عربة مسرعة ولا تموت، أو يسود صمت أكثف من أى صمت.. أو تسمع أصوات تصدر من لا مكان.. ودائماً يحتمل هواء الشارع الخالى أشواقاً لعالم غريب..

قرب انتهاء ساعات العصر دخل بائع ليمون إلى الشارع ووقف يتأمل نهايته لحظة. أقدم على الدخول فيه

دون سبب أو مبرر.

كان وجهه طيباً ندياً، رغم شعيرات الذقن الرمادية ورثاثة الطاقية. رجل قديم وخفيف بجلباب أزرق حائل، والحزام الجلدى الذى تتدلى منه قفة الليمون الصغيرة كأنه الشيء الوحيد الذى يشده إلى الأرض.

عدد الليمون فى القفة ليس كثيراً، وتعب النهار يلقاه منعكساً على الجدران والبيوت والأحجار، والنوافذ، والقرندات. أصفر الليمون، وأخضر، صحيح، وعليل، ومضروب.

وحزام القفة الجلدى مربوط بالدوبار. والجلد والدوبار يلمسان الكتف العارى من تحت الجلباب.

تصادف والرجل ينزل إلى منتصف الشارع الخالى، يحك قدمه الخشنة بأسفلت الشارع أن خرج الأستاذ من باب العمارة التى يسكن فيها مسرعاً. كان كل شيء فى الأستاذ من ياقة قميصه حتى بوز حذائه يقطع بأنه يعرف طريقه على الأقل لست أو لسبع ساعات قادمة.

كان يفصل بين الرجلين مسافة كطول صالة من

صـالات البيوت القديمـة.. وفـجـأة بدأ كل شيء يقع، الأسـتـاذ يتـحـرك والمسـافـة بينهـما لا تقطع.. لا يمكن أن يكون واقفاً، ولا يمكن أن يكون ينادى عليه أو يطلب منه شيئاً.. الحركة أمام بائع الليمون دائمة ولكنها جامدة وبصره الكليل يحدق.. يحدث أمامه الآن ما هو أغرب يدا الأستاذ تتقلصان بسرعة شديدة، وهو يهزهما معاً. سار الكف قـرب الكتف، واليـد صـارت يد الطفل، إلا أن وجـه الأسـتـاذ كـان لايزال يلمع ونظارته ذات الإطار الذهبي ثابتة على وجهه.

ينعكس على وجـهـه الجـامـد المرسـوم أن كل مـا فى الرأس من برامج وأفكار مازال مرتباً وواضحاً كما كان.

خطا بائع الليمون خطوتين دون تردد لكى يتأكد مما يحدث أمامه. وجد أن ساقى الأستاذ أيضاً تنفرجان إلى الخارج من جراء الجهد الكبير الذى يبذله لكى يتحرك.

استـخـار الله وحـاول أن يصـرف نظره، حـاول أن ينصرف فى الشـارع وألا يواجـه مـا يحـدث أمـامـه ولكن

الأستاذ كان قد استدار وأخذ يجرى بسرعة فى الاتجاه المضاد.

كان جسده الكبير الذى بلا ذراعين يسد نهاية الشارع، ووجد بائع الليمون نفسه يجرى وراء الظاهرة الغريبة. من الطبيعى أن ينزلق من على كتفه حزام الجلد الذى يحمل القفة.

وأخذ الليمون يجرى كله حولهما فى أرض الشارع المنحدر. قد تكون المسافة التى قطعاها طويلة أو قصيرة.. ولكنهما فوجئا فى نهاية الشارع بمنظر الغروب المهيب. القرص يسقط فى الماء وهمات يواصلان الجرى نحوه ونحو البحر.

كان الليمون يسقط فى البحر، بعضه يعلق بالطحالب والصخور، كما اختفى - أيضاً - الأستاذ وبائع الليمون.

- ٢ -

كانت الدائرة ترقد كبيرة هادئة فى ركن المربع.. قطرها متماسك وقوى ومساحتها مستقرة وطيبة.. لم يكن فى شكلها ما يوحى بأنها تشعر بما يدور حولها فى المربع المغلق المنضبط الأضلاع والزوايا.

المربع الذى كان يشغل مكاناً ما. كان مليئاً بأشكال كثيرة أخرى.. مستطيلات صغيرة.. ومربعات أصغر.. ومثلثات.. وأشكال هندسية وغير هندسية.. أشكال لها أسماء.. وكان للجميع مكان.. المربع مزدحم ولكنه لايزال يتسع للجميع.. يسود هذه الأشكال سكون قد تتحرك زواياها وأضلاعها فى ملل. ولكن الدائرة الكبيرة المستقرة القطر والمركز والمساحة كانت دائماً أبداً تشغل نفس الحيز بنفس الوقار والطيبة. إن أحداً لا يدرى متى بدأت عملية التداخل.. وأحداً لا يدرى السبب فيها.. ولكن لابد أن هناك حقيقة هندسية أملت تلك الحركة التى استمرت

ولم تتوقف حتى النهاية.

لم يكن هناك زمن يمكن اعتباره البداية ولكن كل الزوايا والأضلاع أخذت تبحث عن وضع نهائى ومستقر.. الزوايا الحادة والمنفرجة والقائمة.. والأضلاع القصيرة والطويلة، المستقيمة والمتعرجة كلها دبت فيها حركة ذاتية وكأنها رأت فجأة حدود المربع كله ومكانها.. ومكان الدائرة فى الطرف الأعلى.. ومكان كل شكل.

لم يكن خداعا فى النظر ولا فى الحواس ولكن الحركة كانت تتم بين الجميع فى تآلف موسيقى.. تحركت كل الأشكال فى سرعة واحدة.. وبلا صوت احتكاك.. من أعلى كان المربع كله يبدو كأنه بحر من سكون لين يخفق فى حلم طفل نائم.

قطر الدائرة الكبيرة ومساحتها ومركزها كانت جميعاً تطل على المشهد فى نفس الطيبة والوقار.. ومر ما يمكن أن يكون زمناً طويلاً.. تغير فيه إيقاع الحركة.. ومال إلى العنف ثم مال إلى الركود ثم تهدل وتكون فى قاعدة المربع شكل يكاد يشبه الدائرة. وخلا المربع إلا من الشكلين.

- ٣ -

المكان قطعة من تراب لين دقيق ناعم.. تحت ظل سور من أشجار «الجهنمية» ذات الزهور الحمراء وتمر تحت السور مباشرة قناة صغيرة فيها قليل من الماء الراكد.. ولكن سطحها يلمع بنور شمس يتسرب من بين الفروع الغزيرة لسور الجهنمية العجوز.

كان فى المكان صمت إلهى كأن الكون كله لم يخلق بعد.. مكان صغير جداً لا يمكن أن يوجد فيه إنسان ولكن قد تسقط عليه عيون آدمي من بعيد فترتاح عنده. وتحلم بأن تذوب فى الذرات ويقع الضوء على سطح الماء.

فى خطوات صغيرة اقتحم كلب عجوز المكان المريح.. وتطلع من بين فتحات سور الجهنمية إلى ضوء الشمس.. فرأى انعكاسها على سطح الماء.. وأدرك أن خطواته قادته إلى هناك لأنه متعب وعطشان فمد أنفه الأسود وسط بقع النور فوق سطح الماء وشرب.

ثم هز رأسه بعنف فتناثرت قطرات الماء.. وانبعث من خياشيمه صوت.. وطارت فراشة بيضاء.. ثم رقد على التراب اللين وانعكس بعض من ظله على صفحة الماء.

الفهرس

نهر تحت الصخر 7

التراب يغطى وجهك 13

ليس عندنا ما يقال 21

هانى وهند 59

ثلاثة خطابات لحبيبة مجهولة 39

أهم شىء فى العالم 49

العاصفة 61

البيت بارد 71

طعام وشراب 83

فى بطن الحوت 89

خطفوا اللعبة 97

المسافر الأبدى 111

ياسمين من نابلس 117

الشيخة 125

البشكير الملون 157

حكاية كل يوم 163
ولارجوع 171
عيناها والجبل 177
صباح الجمعة 185
فوزية مهتمة بالنظافة........................ 193
الفويشة الذهب........................ 201
تحقيق صحفى........................ 209
العقرب........................ 217
العودة إلى القاهرة........................ 227
الكاتب والمحبوب 235
أصول اللعبة 241
الوقح........................ 247
المرمطون 255
الدموع الحجرية........................ 261
تاريخ حياة رجل........................ 267
المتوحشة والجلاد 273
الحفل الرسمى 279
ثلاثة نقوش فى الزمان........................ 285

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ - بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان

٢٠٣ - كويلا ....قصص : يحيى مختار

٢٠٤ - الشرنقة .... قصص : سليمان فياض

٢٠٥ - مدينة اللذة .... رواية : عزت القمحاوى

٢٠٦ - كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر

٢٠٧ - طراوة العين ....قصص : نبيل نعوم

٢٠٨ - نخب اكتمال القمر ....قصص : ابتهال سالم

٢٠٩ - ظلل النار .... قصص : يوسف أبو رية

٢١٠ - الواحد الواحدة .... شعر : حلمى سالم

٢١١ - فوق الحياة قليلا .... رواية : سيد الوكيل

٢١٢- برجالاتك .... قصص : أمين ريان

٢١٣- وقائع استشهاد اسماعيل النوحى: رواية: سمير ندا

٢١٤ - فخاريات .... شعر : اسامة شهاب

٢١٥ - رجف الذاكرة .... قصص : رضا امام

٢١٦ - تفاصيل وتفاصيل أخرى.........شعر : ابراهيم داود

٢١٧ - هي وخادمتها .... قصص : هناء عطية

٢١٨ - كتاب العشق .... شعر : عبد الدايم الشاذلي

٢١٩ - حكايات جار النبي الحلو.. قصص : جار النبي الحلو

٢٢٠ - الحنين .... شعر : عبد العظيم ناجي

٢٢١- نسيم الصبا..................... قصص : زينب صادق

٢٢٢- بندق .... قصص : محمود حنفي

٢٢٣- الغالب والمغلوب.............. رواية : مصطفى الأسمر

٢٢٤- مساحات للتعب .... شعر : سمير عبد الباقي

٢٢٥- مشتهيات .... رواية : سهام بدوي

٢٢٦- أشعار .... شعر : ابراهيم رضوان

٢٢٧- القابض على الجمر .... قصص: رفقي بدوي

٢٢٨- حلاوة الروح .... شعر : أمين حداد

٢٢٩- يوني سكس .... قصص : علاء البربري

٢٣٠- الأرض جحيم الخائفين ....: شعر : حسن عقل

٢٣١- حلواني عزيز الحلو .... رواية : محسن يونس

٢٣٢- فراديس الحواري .... شعر: ابراهيم خطاب

٢٣٣- مقاطع من جولة ميم الملة ...... قصص: حافظ رجب

٢٣٤- هذا دمي وهذا قرنفلي .... شعر : وليد منير

٢٣٥- توتة مائلة على نهر .... قصص: محمد ابراهيم طه

٢٣٦- معلَّقةٌ بشص .... شعر : فريد أبو سعدة

٢٣٧- موسم الرياح .... رواية : سمير المنزلاوى

٢٣٨ - كيف طاوعك الرحيل؟........... شعر : مختار النادى

٢٣٩- تحولات إنسان عابر......... قصص : جمال زكي مقار

٢٤٠- خيانات ذهنية .... قصص : مي التلمسانى

٢٤١- ذهبت إلى شلال.................... قصص: بهاء طاهر

٢٤٢- حالات التعاطف .... قصص: نورا أمين

٢٤٣- تل القلزم .... رواية : محمد الراوى

٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت .... محمد المخزنجى

٢٤٥- صور من ألبوم نيويورك.......... شعر : أحمد مرسي

٢٤٦ - بروقات............................ قصص : عفاف السيد

٢٤٧- ريحة البلاد التانية .... شعر : ابراهيم سلامة

٢٤٨- ثلاثية الوجع .... قصص : بهاء السيد

٢٤٩ - تعاسات شكلية.............. قصص : محمد الشاذلى

٢٥٠ – كوميديا .... شعر : فارس خضر

٢٥١ – آخر حبه مزيكا .... شعر : صادق شرشر

٢٥٢– السيـدة التى .... قصص : صبرى موسى

٢٥٣– شال من القطيفة الصفراء... قصص : عبد الوهاب الأسوانى

٢٥٤– فى هذا الصباح ...... قصص : أبو المعاطى أبو النجا

٢٥٥– دكه خشبية .... رواية : شحاته العريان

٢٥٦– زهرة البستان .... قصص : فؤاد قنديل

٢٥٧– الجرذان .... قصص : فاروق حسان

٢٥٨– أسفار الملك الضليل .... شعر : حسن النجار

٢٥٩– هذا ظل الأرض على قلبى..... شعر: فتحى فرغلى

٢٦٠– ذلك الجانب الآخر .... شعر : حسن سليمان

٢٦١– الحياة مش بروفة .... شعر : مجدى الجابرى

٢٦٢– شخص غير مقصود.... قصص : منتصر القفاش

٢٦٣– عمل نبيل .... قصص : إدوار الخراط

٢٦٤– طارت مناديل السعاده..... شعر : طاهر البرنبالى

٢٦٥– حارس الغيوم..........قصص : سمير عبد الفتاح

٢٦٦– المسافر الأبدى(قصص وحكايات)..........: علاء الديب

رقم الإيداع : ٩٩/١٣٤٧٥

الأمل للطباعة والنشر

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

أصوات
أدبية

الأمل للطباعة والنشر

خمسون قرشا